إرث النكبة

اسم الكتاب: إرث النكبة (رواية)
الكاتب: محمد عبده البردوني
تحرير وتقديم: رياض حَمّادي
تدقيق لغوي: محمد عبد اللطيف
إخراج داخلي: سليل الفراعنة
لوحة الغلاف: هدية من الفنانة سبأ القوسي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولحزاوي للتنمية الثقافية 2023©

حزاوي
HAZAWI
للتنمية الثقافية

YKB
بنك اليمن و الكويت يُلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

محتوى هذه الرواية يعبر عن كاتبها ولا يعبر بالضرورة عن رأي
جائزة السرد اليمني ولا عن رأي راعيها.

(روايـــة)

إرث النكبة

جائزة السرد اليمني (حزاوي)

القائمة القصيرة ٢٠٢٢م

محمد عبده البردوني

حزاوي
HAZAWI
للتنمية الثقافية

YKB
بنك اليمن و الكويت يلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

ليس بيني وبين شيء قرابة

عالمي غربة زماني غرابة

ربما جئت قبل أو بعد وقتي

أو أتت عنه فترة بالنيابة

عبدالله البردوني

❊ ❊ ❊

وأنت تعد فطورك، فكر بغيرك

لا تنس قوت الحمام

وأنت تخوض حروبك، فكر بغيرك

لا تنس من يطلبون السلام

محمود درويش

❊ ❊ ❊

هناك أشخاصٌ يزعمون أنهم يكتبون قصصًا حقيقية... فليكن.

علىٰ أية حال هذه قصة حقيقية.

بورخيس.

❊ ❊ ❊

١

"اعتداء تخريبي علىٰ أبراج نقل الطاقة في الجدعان يخرج محطة مأرب الغازية عن الخدمة."

بابتسامة عريضة قرأ محمد الرسالة الإخبارية، التي لاتزال محفوظة في هاتفه القديم، الذي وجده بالصدفة في أحد الأدراج حين كان يقوم بالبحث عن بعض الأوراق، في الغرفة المخصصة كمكتب لمعمل مناشير الأحجار الذي يمتلكه والده ويديره بمساعدة إخوته.

قبل تشغيله، قام بتوصيل الهاتف بالشاحن لتعبئة بطاريته. كانت البطارية أحد عيوب ذلك الهاتف؛ إذ كان لا يعمل إلا أثناء الشحن وينطفئ في حال إزالة الشاحن. كان قد استغنىٰ عنه حين لم يعثر علىٰ بطارية جديدة له في محلات بيع الهواتف.

هاتف سامسونج، كوري الصنع نظام "أندرويد"، كان أول هاتف يعمل باللمس يمتلكه. أخذ يقلبه في يديه متذكرًا الأيام الخوالي، ومندهشًا كيف مرت عشر سنوات- منذ استبداله الهاتف- من حياته دون أن يشعر بها! كم عايش من أحداث وكم سمع من أخبار وكم من أحداث عصفت بالبلاد والعباد حتىٰ أنه نسي ما جاء من أجله: البحث عن الأوراق.

أقفل الدرج الحديدي، وعلَّق السلسلة التي تضم المفاتيح في غمد جنبيته المثبت بحزام يتوسط جسده. وبشغف شديد، وبحنين إلىٰ الماضي، جلس علىٰ المتكأ بدلًا من الجلوس علىٰ الأرض؛ لكي يكون قريبًا من المصدر الكهربائي الذي وضع فيه الشاحن، مراقبًا النسبة المئوية للشحن، والتي ترتفع ببطء شديد، كان ممسكًا الهاتف المحمول بيده اليسرىٰ، موجهًا الشاشة المطفأة نحو وجهه، وبين الفينة والأخرىٰ يتأكد من تثبيت سلك الشحن مستخدمًا إصبعي السبابة والإبهام في يده اليمنىٰ.

مسح طبقة الغبار علىٰ سطح الشاشة بطرف الشال المنسدل من فوق كتفيه. فظهر له شبح مخيف بعينين غائرتين، وهدبين قصيرين، يعلوهما حاجبان مستطيلان خفيفا الشعر، وفوق ذلك جبين واسع تتوسطه خصلة شعر كبيرة شعثاء، ومن بين كهوف وتجاويف العينين ينحدر أنف كبير الحجم كصخرة ناتئة تحيط بها الأخاديد، وبالرغم من أنه خفيف شعر اللحية إلا أن له شاربًا كثًا ومترهلًا كالزرع الذابل، وشفتين غليظتين كأنهما لأفريقي، وعظمة ذقن صغيرة يغطيها جلد حليق الشعر.

حدَّث نفسه: يا لطيف كيف صرت!

ولكي يتأكد من أن الصورة المنعكسة علىٰ شاشة الهاتف المطفأ هي صورته، أخذ يدير رأسه يسرة ويمنة، وفي كل مرة كان يظهر له

الشحوب والبؤس اللذان علىٰ وجهه. شاهد كيف انتصبت العضلات القصبية التي في عنقه في كل مرة كان يدير فيها رأسه. بدا كأنه تمثال من الصخر لا يتذكر أين رآه.

علىٰ الرغم من أن عمره لم يتجاوز الخامسة والثلاثين، إلا أنه يبدو أكبر من سنه بكثير، ليس لأنه لم يعد يهتم بمظهره فقط، بل لكثرة الهموم التي في قلبه، والمسؤوليات الملقاة علىٰ عاتقه والالتزامات التي يواجهها وينوء بحملها وحده. حين تكون الأخ الأكبر في أسرة كثيرة العدد فإن مسؤولياتك ستكون كبيرة وهمومك أكبر، وسيبدو مظهرك كبيرًا في السن أو ربما يجب أن تكون كذلك. هذا ما كان يدور في خلده وهو يتأمل صورته المنعكسة علىٰ شاشة الهاتف، وقلبه يخفق بشدة لما تذكره من أحداث مرت عليه في تلك الفترة بكل ما فيها من الحزن والفرح، والتفاؤل والقلق، والأمل والخيبات. كان هذا الهاتف شاهدًا عليها؛ كان صندوق أسراره المهنية والاجتماعية ونافذته المفضلة التي يطل من خلالها علىٰ ما يشاء دون معرفة أيًا كان أو طلب الإذن من أحد. هاتفه هذا هو صديقه الأمين الذي يعرف عنه كل شيء.

- محمد، نشتي مصروف للغداء والقات.

خاطبه أخوه عبد الله وقد وقف بباب المكتب بملابس العمل.

- أبشر..

أجابه ولم يرفع رأسه عن شاشة الهاتف إلا حين تحدث أخوه ثانية قائلًا:

- قالوا إنهم ما بيشتغلوا بعد الغداء. (يقصد بقية الإخوة.)
- ليش!

أجابه وقد رفع رأسه ونظر إليه مستغربًا، وأضاف: "لازم يكملوا دوامهم. أو كان يجب أن يتوقفوا قبل ساعة من الآن لكي نسجل لهم نص نهار عمل."

قام من مكانه، ووضع الهاتف فوق المتكأ بهدوء، وتأكد من أنه يشحن بنقرتين متتابعين على الشاشة. مضى نحو الدرج، فتحه وأخرج منه مبلغًا من النقود لم يعده، دسه في جيبه وأغلق الدرج ومضى إلى الخارج بعد أن أقفل غرفة المكتب. والمكتب هذا عبارة عن غرفة مربعة الشكل، لا تزيد مساحتها على الأربعة أمتار، ينفتح بابها باتجاه الشارع الذي تقع فيه أرضية المحل، الذي يعرف محليًا باسم "منشار" وقد يبالغ بعض أصحاب هذه المعامل بتسميتها مصنعًا إلا أن الأغلبية، ومنهم محمد يكتفون باسم "منشار".

يحاول محمد جعل إخوته يلتزمون بالعمل مثل بقية العمال في المحلات الأخرى ولكن دون جدوى؛ فهم دائمًا متذمرون من العمل،

ويعتقد البعض منهم، وبخاصة أخوه أحمد، أنه كان من الممكن كسب المال دون عناء لو أن جدهم ترك وصية واضحة قبل وفاته تحفظ حقوقهم، وتمنع النزاع بين والدهم، الذي تسبب في شقائهم، وعمتيهم، ولكن ذلك الجد لم يفعل شيئًا لهم. يحاول محمد إبعادهم بشتىٰ الوسائل والطرق عن مثل هذه الأفكار السلبية التي دائمًا ما تجعلهم يعيشون أحلام يقظة مزعجة، وأوهامًا لا طائل منها.

- لماذا تتصرفون بهذه الطريقة؟ لو كنتم تعملون لدىٰ أناس آخرين كنتم ستشتغلون دوامًا كاملًا، ولو كان يعمل معي عمال غير إخوتي كانوا سيشتغلون دوامًا كاملًا أيضًا.

خاطب محمد إخوته حانقًا، بينما هم يغسلون وجوههم وأطرافهم عند خزان المياه داخل المحل. أجاب أخوه الأوسط، صالح، بابتسامة لطيفة لتهدئته:

- اليوم خميس، والديزل علىٰ وشك النفاد من خزان الماطور. لا نريد أن يشفط الأوساخ المترسبة في أسفله لئلا يتسبب لنا بأعطال ومشاكل كثيرة.
- أنا مسافر..

بنبرة غريبة ومستفزة ودون أن ينظر إليه، قالها أحمد ومشىٰ والماء يقطر من رأسه بعد أن غسله ولم ينظفه تمامًا.

- ماله هذا؟ موجهًا محمد السؤال إلىٰ بقية إخوته.

أجاب صالح:

- أنت تعرفه، هذه طبيعته. من الصباح وهو يتقارح فوقنا، أكيد زوجته اتصلت به.

وخاطب صالح عبد الله:

- أسرع كي تجد لنا قاتًا مناسبًا.

قال عبد الله موضحًا زيادة الطلب علىٰ القات في يوم الخميس، ومسبقًا العذر لنفسه في حالة لم يجد قاتًا مناسبًا:

- اليوم خميس والسوق مزدحمة.

واتجه نحو محمد وقال له: هات الفلوس. أخرج محمد الفلوس وأخذ يعد إلىٰ أن وصل إلىٰ خمسة عشر ألف ريال، وقال:

- هل ستكفي؟

هنا ناداهم الأخ الأصغر عبد الكريم، الذي كان لايزال يقوم ببعض الأعمال جوار المناشير:

- إذا كنا لن نشتغل بعد الغداء فلا تحضر لي قاتًا معك.
- حاضر.

أجابه عبد الله واتجه نحو الشارع لينتظر باصًا يقله إلىٰ السوق؛ ليحضر القات والغداء له ولإخوته. وأمام مدخل المحل وجد صديقيّ إخوته ينتظرانه. علوي وناجي، من عمال المناشير المجاورة من أبناء قريتهم، طلبا منه شراء قات لهما؛ لخبرته المشهورة في الشراء، فهما لا يستطيعان التفاهم مع المقاوتة (بائعي القات) في يوم الخميس كما يفعل هو. وافق ضاحكًا وسألهما:

- والغداء! هل ستتناولان معنا طعام الغداء؟
- نعم، احسب حسابنا.

كانت الساعة تشير إلىٰ تمام الثانية عشرة ظهرًا. انتظر محمد حتىٰ انتهىٰ إخوته من الاغتسال، فقام يتوضأ وصلىٰ الظهر في مصلىٰ مجاور للغرفة المخصصة كسكن للعمال وتقع مقابل غرفة المكتب. بعد أن أكمل صلاة الظهر أطل برأسه من النافذة وسأل من في الداخل:

- هل أتىٰ عبد الله من السوق؟

لا يدري من الذي أجاب منهم بـ "لا"؛ فقد كان أخواه أحمد وصالح والصديقان علوي وناجي مستلقين علىٰ ظهورهم. أحمد يغطي وجهه بشال ويبدو نائمًا، بينما ناجي وصالح يطالعان شيئًا في هاتف أحدهما، وعلوي هو الآخر يقلب في هاتفه المحمول.

عاد وتوجه نحو القبلة وصلىٰ العصر؛ بدافع الخوف. يعتبر محمد شخصًا متدينًا؛ إذ يعتقد أن عليه أن يكون ملتزمًا دينيًا حتىٰ يقبله الله وينجح في مهامه. ويعتقد إخوته أن صلاته كافية لكي يوفقوا فهو المسؤول أمام الله كما يقولون، حتىٰ أن الأخ صالح يسأل باستمرار: هل صلىٰ محمد أم لا؟

يعرف محمد أكثر من غيره أن صلاته كمبيوترية؛ فهو يأخذ بالرأي الأسهل من كل مذهب، وحين يمتدحه أحدهم بأنه شخص يخاف الله يقول لنفسه: فعلًا أنا أخاف كثيرًا من الله.

قبل أن يكمل صلاته سمع جلبة فعرف أن عبد الله قد عاد، وعرف أنهم قد بدأوا بتقسيم القات فيما بينهم. أتم صلاته وقام متجهًا نحو الغرفة، وفي طريقه نادىٰ عبد الكريم الذي كان قد صعد إلىٰ سطح غرفة المكتب، حيث توجد هناك دشمة مرتبة ونظيفة يتخذها الأخ الأصغر مقرًا لنومه واستراحته بعيدًا عن ضجيج إخوته وأصدقائهم، وهرجهم الذي لا يتوقف. كان محمد معجبًا بهذه الدشمة حتىٰ أنه ينام فيها حين يكون عبد الكريم في إجازة من العمل. تتوفر للقاطن فيها نظرة بانورامية للمحل، إلىٰ كل الاتجاهات، فيتمكن من حراسته وهو في خلوته. حين دخل محمد الغرفة وجد الأجواء متوترة بين أخويه عبد الله وأحمد، ومشادة كلامية تحدث بينهما. سأل بصوت مرتفع:

- أيش فيكم؟

أجابه عبد الله:

- أحمد رفض القات الذي أحضرته له، مع أنه من نوعية قاتنا نفسه.

قاطعه أحمد بالحديث:

- قلت لك أنا مسافر، واشتي قاتًا مناسبًا للسفر، هذا القات لا يناسبني.

ورمىٰ بكيس القات إلىٰ أرضية الغرفة. أخذ محمد كيس القات من الأرض وعلقه في مسمار في الجدار وقال مخاطبًا أحمد:

- بعد الغداء سأعطيك مالًا، واشتر لنفسك القات الذي يناسبك.

جلسوا لتناول طعام الغداء. وبعد الغداء ناول محمد عبد الكريم المفاتيح وقال له: أحضر خمسين ألف ريال من الدرج. عرف أحمد أن هذا المبلغ هو الذي سيعطيه إياه محمد، فقال:

- ما تكفي. أشتي مية ألف.
- خذ خمسين، وإذا غلقت عليك المصاريف سوف نحول لك ثانية. وبادر عبد الله لدعم محمد وإقناع أحمد بقوله:

- نريد أن نشتري أحجارًا خام، ونعبئ ديزل، نحتاج اليوم إلىٰ كل ريال، خذ هذا المبلغ، ومثلما قال محمد إذا احتجت إلىٰ شيء اتصل بنا.

قام أحمد بحشو ملابسه في كيس دعاية وغادر المحل متجهًا إلىٰ مدينة ذمار ومن ثم إلىٰ قريتهم التي تبعد ثلاثين كيلو مترًا إلىٰ الشرق من المدينة.

❊ ❊ ❊

٢

علىٰ الخط الرابط بين محافظتي تعز وإب، وبالقرب من مفرق ماوية المزدحم بأسواق القات، وأمام معسكر مقفر يتبع لسلاح المهندسين في الجيش اليمني، يقع محل الحاج عبده وأولاده. المحل عبارة عن معمل صغير لقص الأحجار والرخام، في أرضية مستأجرة، يعمل فيه الإخوة الخمسة: أبناء الحاج عبده. وفي بعض الأحيان يعمل إلىٰ جانبهم بعض العمال، إذا دعت الحاجة إلىٰ ذلك، كأن يزداد الطلب علىٰ الأحجار التي ينتجونها في بعض المواسم التي يقوم الناس فيها بالبناء، أو حين تأتيهم طلبيات لا يستطيعون إنجازها في الوقت المحدد إلا بزيادة الطاقة الإنتاجية للمعمل وذلك بتشغيل كل المكائن، حتىٰ لو استدعىٰ الأمر العمل ليلًا.

مثل معظم أبناء قريتهم الذين يمتلكون هذا النوع من المناشير ويشتغلون في هذه الحرفة، يتمتع الإخوة الخمسة بخبرة جيدة في هذا المجال. اكتسبوها من طول الممارسة مع عمال سابقين اشتغلوا معهم، حتىٰ اكتفوا ذاتيًا من الأيادي العاملة، وصاروا هم من يعمل في محلهم بأنفسهم، سعيًا وراء كسب معيشتهم، وطلبًا لقوت أسرتهم.

محمد هو الأخ الأكبر وهو من يدير المحل، وينوب عنه أحد إخوته في أوقات غيابه. أحمد وصالح يعملان علىٰ ماكينات قص الأحجار، ويطلق علىٰ من يقوم بهذا العمل عند أصحاب المناشير لقب "معلم". ينحصر عمل المعلم علىٰ قص وتشكيل الحجر حسب الطلب ويستدعي هذا معرفة وفهمًا بمقاسات ومصطلحات متفق عليها في سوق هذا العمل.

أما من يساعد المعلم، ويقوم بتزويد ماكينة المنشار بالأحجار، ويقوم أيضًا بنقل الأحجار إلىٰ الواجهة بعد قصها، ورصها في عرض يجذب إليها المشتري، ويقوم أيضًا بتنظيف المكائن، وتصفيتها من المخلفات.. هو من يشار إليه في هذه المهنة بالعامل. ويقوم بها الأخوان عبد الله وعبد الكريم. لكن هذا الفرز بين الإخوة الخمسة لم يكن موجودًا، بل كانوا يتعاونون فيما بينهم بشكل كبير، حيث يقوم محمد إلىٰ جانب الإدارة بالاعتناء بواجهة المحل وتنظيمها، ورص الأحجار المقصوصة بدلًا عن إخوته الصغار، وفي الوقت نفسه يقوم أحمد وصالح بمساعدتهم في تكسير الصخور الكبيرة، وتقريبها إلىٰ المناشير. كما كانوا يقومون بتنظيف وصيانة المكائن وتشحيمها بشكل جماعي.

خمسة إخوة متشابهون في الملامح، متقاربون في الأعمار. أنجبتهم والدتهم تباعًا: محمد، ثم أحمد، يليه صالح، ثم عبد الله، باستثناء عبد

الكريم أصغر من عبد الله بست أو سبع سنوات. بحسب رواية والدته؛ فقد حملت به بعد فترة انقطاع عن الحمل، لذلك هي متعلقة به تعلقًا شديدًا، وتعتبره صغيرها الأحب إلىٰ قلبها رغم العشرين من عمره.

وسط منافسة شديدة في سوق الأحجار والرخام، يدير محمد المحل بمساعدة إخوته، ويعمل الإخوة في المحل؛ حيث قاموا بتوزيع المهام فيما بينهم حسب ما أظهر كل واحد منهم من نجاح فيها.

بعينٍ فاحصة وحاسة سادسة يستطيع عبد الله معرفة جودة الأحجار ونقاوتها وهي لا تزال فوق القلاب. أصبح معروفًا عنه أنه لا يشتري إلا أجودها. لذلك أوكل إليه محمد هذه المهمة بعد أن فشل هو فيها. كان محمد يصدق بحسن نية أن أسفل الحجارة مثل أعلاها، إذا أخبره صاحب القلاب بذلك، في حين يظهر العكس أو قد يقوم أصحاب القلابات برش مسحوق مناسب للون الحجر يقومون بسحقه من أحجار ذات نوعية جيدة؛ فتبدو الأحجار الهشة جيدة تمامًا كما تفعل مساحيق التجميل مع النساء. لكن ما أن يقوموا بقصها تظهر فيها عيوبٌ شتىٰ. ليس في مجال الأحجار فقط، بل في كل المجالات أظهر الأخ عبد الله براعة في الشراء. دائما يشتري أفضل الأشياء التي يحتاجها المحل، وأفضل السلع التي يستهلكونها، وأفضل أنواع القات أيضًا وبأفضل

الأسعار. إنه "ساحر". هكذا يطلق عليه من يشتري منهم حين يسألهم مشترٍ آخر علم أن عبد الله قد اشترىٰ السلعة نفسها بسعر أقل.

أبدىٰ صالح مهارة كبيرة في زيادة الإنتاج؛ حيث طور من خبرته ليصبح من صفوة المعلمين، فصار مرجعًا في كيفية تكسير الصخور الكبيرة، وكيفية وضع الأحجار علىٰ طاولة المنشار قبل قصها، بحيث يتم تفادي الشقوق وإخراج أكبر قدر من الأمتار المربعة من الحملة الواحدة.

يعمل أحمد علىٰ إحدىٰ المكائن معلمًا، لكنه يرفض الأخذ برأي صالح في كيفية قص الأحجار بطريقة صحيحة. يعتقد أن صالح ليس أكثر منه خبرة، وطالما "أنا أكبر منه سنًا فلا أحتاج إلىٰ أن يعلمني" هكذا كان يردد دائمًا، بالرغم من ظهور خطأ معتقده في نهاية كل عمل. كان يرفض بعصبية القبول بكون صالح أكثر كفاءة منه في هذا المجال بالرغم من عدم تقليلهم من جهوده؛ فقد كان يقبل علىٰ عمله مخلصًا، ومنتقدًا في الوقت نفسه طريقة محمد في الإدارة ومقللًا من دور عبد الله في المشتريات علىٰ أهميته، وحين يقوم محمد بمناقشة إخوته في موضوع يتعلق بالعمل يرفض النقاش، قائلًا: ليس لي دخل. عرضوا عليه أن يدير المحل أو أن يقوم بعمل المشتريات، لكنه يرفض المشاركة في السلطة رفضًا تامًا ويكتفىٰ بدور المعارضة.

عبد الكريم هو الأخ الأصغر والأحب إلىٰ قلوبهم جميعًا. كان يمثل حلقة الوصل بين جميع الإخوة، وكان شديد الاحترام لمحمد، عطوفًا علىٰ نزق أحمد، مشيدًا بمهارات صالح، ومعجبًا باحترافية عبد الله.

كان عبد الكريم خلوقًا وهادئ الطباع، ملتزمًا دينيًا وذا خلق كريم رغم صغر سنه، تجمعه مع أخيه محمد صفات عدة يتميزان بها عن بقية الإخوة، وهي حب القراءة والمطالعة، ومتابعة الأخبار والبرامج الوثائقية، ومساعدة الآخرين. وعلىٰ الرغم من خمسة عشر عامًا تفرق بين عمريهما إلا أن كل واحد منهما يعتبر الآخر توأمًا له.

لم يكمل أيٌّ من الإخوة دراسته؛ فجميعهم حرموا من إكمال تعليمهم. محمد هو الأكثر حظًا، فقد استمر في الدراسة حتىٰ نهاية المرحلة الثانوية، بل إنه درس المرحلة الثانوية في صنعاء حين افتتح والده منشارًا في العاصمة بداية الألفية، لكنه لم يستطع تحصيل الدرجات الكافية لدخول الجامعة. بقية الإخوة كانوا يدرسون في القرية التي كانت الدراسة فيها متقطعة وغير منتظمة؛ بسبب الحروب القبلية التي ما كانت لتهدأ إلا لتثور من جديد. ولم يتمكن والدهم من نقلهم للدراسة في صنعاء بسبب تدهور حالته الاقتصادية في تلك الفترة.

❋ ❋ ❋

٣

ما أن بدأوا في تناول القات حتىٰ تكلم علوي مخاطبًا محمد:

- هل رأيت مقاطع الفيديو التي بثتها قناة المسيرة أمس.
- لا. أجاب محمد ببرود. وأضاف: ماذا يوجد فيها؟
- طحن الطحن.
- من طحن من؟!
- الجيش واللجان الشعبية طحنوا الجيش السعودي في جبهات نجران، فهرب السعوديون مثل الغنم.

قال ناجي:

- ما الفائدة، طالما الطيران السعودي فوق رؤوسنا يقصف الأخضر واليابس.

صرخ علوي بصوت مرتفع:

- والطيران المسير حقنا يقوم بطحن مطارات السعودية ومصافي نفطها.

أجابه ناجي مقللًا من فاعلية الطيران المسير وغاضبًا علىٰ ما خلفه الطيران الحربي السعودي من دمار قائلًا:

- مـا عسـاهن أن يفعلـن الطنانـات حقـك، وقـد حقهـم الطـائرات طحنت كل المنشآت والبنية التحتية لبلادنا!
- لـدينا صـواريخ باليسـتية، وصـواريخ مجنحـة قـادرة علىٰ تـدمير الرياض في غمضة عين.
- خلونا نخزِّن يا جن، أو اذهبوا وقاتلوا معهم إذا كنتم تحبونهم.

صرخ صالح المنهك من العمـل في وجه الصـديقين نـاجي وعلـوي اللذين نقلا جبهة المعركة إلىٰ غرفة المقيل.

- اتصل بي يحيىٰ قرواش. قال إنه سمع أن بيت جـدي عبـد الله، في صنعاء القديمة، انهار بسبب كثرة هطـول الأمطـار... قـال صـالح لمحمد... وأضاف: ابن عمتي يرىٰ أن نطلع إلىٰ صـنعاء ونتفقـد البيت حتىٰ لا تضيع أرضه.
- قد ضيعنا ما هو أهم من البيت. رد محمـد... الحمـد لله، أخـذت علبـة الشَّـمة حـق جـدي وإلا كانـت طُمـرت تحـت الأنقـاض... للأسف بقـي شيء مهـم لـم أسـتطع أخـذه... اتصـل بـابن عمتـي وقل له أنا أعرف أن البيت قد انهار ولكن لن نطلع صـنعاء. البلـد في حالة حرب ولن نستطيع عمل شيء.

أخبـار الحـرب وقصـص المعـارك هـي مـادة مجـالس القـات في كـل مكان، ولا يكتفي المتحدثون بما نقله إعلام أطراف الحـرب مـن مبالغـة،

بل يضيفون إليها مبالغات كثيرة لا يتصورها عاقل. يرىٰ علوي في الحوثيين قلة مستضعفة نصرهم الله ويمدهم بتأييده.. ويتخيل علوي ومن هم علىٰ شاكلته أن القدرات العسكرية للحوثيين تضاهي القدرات العسكرية الروسية وأنهم قادرون علىٰ هزيمة كل دول العالم. في حين يرىٰ ناجي ومن هم علىٰ شاكلته أن الحوثيين فتحوا علىٰ الناس أبواب جهنم بحروبهم التي لا تتوقف وأن طمعهم في الوصول إلىٰ السلطة هو ما جلب السعودية وحلفاءها لحرب اليمن تحت ذريعة دعم الشرعية.

كانت هناك حرب أخرىٰ، بل حروب عدة ينشغل بها محمد ويخوضها منذ سنوات طويلة دون أن يخبر أحدًا عنها، انتصر في بعضها وتجرع الهزائم في البعض الآخر، وحين اشتعلت هذه الحرب كادت أن تلتهمه إلىٰ طاحونتها المرعبة لولا ألطاف خفية نجته منها بأعجوبة.

لذا فهو لا يستطيع المشاركة حتىٰ بالكلام عن الحرب، ولم يستطع تحديد مكانه في الجبهة الكلامية علىٰ الأقل، كأن يتخذ من الحياد ملاذًا وبالعمل من أجل طلب الرزق حجة لعدم خوضه في تلك المعارك الكلامية التي لا تتوقف، والتي ربما كانت السبب من وجهة نظره في إشعال الحرب الحقيقية التي تدور رحاها الآن وتطحن الأخضر واليابس في كل أنحاء البلاد. إذا وجَّه إليه أحدهم سؤلًا يتعلق بالحرب وموقفه

منها كان يجيب بعبارات مطاطية ومصطلحات فضفاضة تحتمل أوجهًا عدة.

استمر المقيل حتىٰ الرابعة عصرًا. اجتهد كل واحدٍ منهم في التحليل السياسي والعسكري وطرح وجهات النظر الكفيلة بتغيير الواقع لو التفت إليها الساسة الأغبياء. كان علوي صاحب الصوت المرتفع والاعتقاد الراسخ بأن الحوثي قادر علىٰ هزيمة الجميع، في حين قدَّر الآخرون احتمال حصول حل سياسي تفاوضي.

- هل ستذهب لشراء أحجار خام من الحوبان؟ وجه محمد الكلام إلىٰ أخيه عبد الله.
- نعم، وسأنتظر هناك حتىٰ وقت متأخر من الليل. اليوم خميس وسيضطرون لبيع الأحجار بأقل سعر إذا انتظرت إلىٰ وقت متأخر.
- لا تتأخر. وابق علىٰ تواصل معي، وفي طريقك اسأل في أية محطة يتوفر الديزل وبكم سعره اليوم؟ وأشار إلىٰ كيس القات المعلق الذي تركه أحمد وقال: خذ هذا لك، خزِّن به بعد العشاء.
- هل ستأتي نتمشىٰ يا علوي؟
- أكيد.

غادر الشابان المحل وذهبا إلىٰ جولة الحوبان لينتظرا هناك خروج الشاحنات التي تحمل الرخام من جبال منطقة الصلو القريبة، والتي تمتلك ثروة كبيرة من الأحجار والرخام، ويشاع أن جبالها تكتنز ثروة معدنية كبيرة. يجمع بعض العمال الأحجار التي تشوهها النقاط السوداء، والصفراء والتي يرفضها الزبائن ويقومون ببيعها في سوق الملح بصنعاء القديمة، لا أحد يعرف فيما يتم استخدامها، إلا أن السعر المنخفض وغير المغري هو ما جعلهم يعزفون عن حملها إلىٰ صنعاء لثقلها، وعدم امتلاكهم سيارات نقل خاصه بهم.

قام صالح لتشحيم المناشير بمساعدة عبد الكريم، وانصرف ناجي إلىٰ عمله، وبقي محمد وحيدًا فقام لتفقد هاتفه القديم الذي تركه يشحن من قبل الظهر. وحين عاد وجد زبونًا يسأل إذا كانت توجد لديهم أحجار أبينية (من أبيَن)؟

- للأسف يا عمنا ليست موجودة!
- لماذا اختفت برأيك؟ وأين يمكن أن نجدها؟
- اختفت خوفًا من الحرب. قالها مازحًا وأضاف: ربما تجدها لدىٰ أصحاب المحلات الكبيرة. هُم خزَّنوا كميات كبيرة منها حين كانت متوفرة. إذا بقي منها شيء سيطلبون منك سعرًا خياليًا.

غادر الزبون المحل وليست علىٰ وجهه أية مشاعر واختفىٰ من أمام المحل بسرعة جعلت محمد يفكر: ما الذي جاء بهذا الرجل يسأل عن الحجر الأبيني؟ أتراه خرج من الهاتف؟!

كان الحجر الأبيني هو الشغل الشاغل لمحمد أيام استخدامه لهذا الهاتف. حافظة الرسائل مليئة بطلبيات من هذا النوع الممتاز من الأحجار، وقائمة الأسماء تحتوي علىٰ عدد كبير من موردي ومشتريِّ هذا النوع من الأحجار الذي تاجر فيه محمد وإخوته قبل عشر سنوات في محلهم الذي كان في عدن قبل أن يضطروا لتركه بعد احتدام المعارك وسيطرة الجماعات المطالبة بالانفصال عن الشمال.

قام برمي القات من فمه، وتمضمض أكثر من أربع مرات وأخذ يهمهم ويلعن بائعي القات. كان أحمد محقًا في رفضه لهذا القات؛ إنه سيء للغاية، يستطيع "المقاوِتة" خداع الجميع. دخل إلىٰ الغرفة ونزع الشاحن الذي كان موصلًا من موزع في أرضية الغرفة من هاتفه الحديث ووضعه في هاتفه القديم وقام بتشغيله.

❋ ❋ ❋

٤

ما أن اشتغل الهاتف حتىٰ ظهرت الصورة التي ثبتها يومًا ما كخلفية للشاشة.

جبين ناصع، وجه ممتلئ وعينان واسعتان تشعان بالبريق وابتسامة مريحة وإن كانت مصطنعة، وشارب خفيف مشذب. منتصب القامة مزهوًا برجولته، يرتدي ثوبًا ناصع البياض ويشد خصره بحزام الخنجر اليمني المصنوع من السلك ذي اللون الذهبي، فيه "جنبية" مقلدة إلا أنها أنيقة، ويشد أعلىٰ رأسه بشال ملفوف بشكل حلزوني تظهر من حوله خصلات الشعر نظيفة وحالكة السواد. إنها أفضل صورة له، والأجمل أن زوجته من قامت بالتقاطها.

كان يومها برفقة زوجته في أحد الحقول. قاما باللهو والمرح أكثر من قيامهم بأي عمل. كان غير مبالٍ، في حين كانت قلقة من توبيخ والدته حين يعودان إلىٰ البيت.

- دعني أقوم بجمع العلف وأنت تعال ساعدني لنحملهن علىٰ ظهر الحمار. أُمك ستغضب إن لم أعد بكمية كبيرة من العلف. وفي محاولة منها لثنيه عن مشاكساته أضافت زوجته: سأخبرها أنك من منعني من القيام بعملي.

- طيب أكملي جمع العلف وأنا سأصعد إلىٰ "الحيد" لأتصل بإخوتي. ولا تفسدي بيني وبين أمي.

تذكر تلك الأيام حين لم يكونا قد أنجبا الأطفال بعد، رغم مضي ثلاث سنوات علىٰ زواجهما. كان يفضل أن يقضيا أوقاتهما القليلة التي يكونان فيها لوحدهما كعاشقين إلا أنها سرعان ما كانت تذكره بالمسؤوليات المتوجب عليهما القيام بها والأعمال التي يجب عليهما إنجازها، فكانت تعكر صفوه وتثير حنقه. وحين تراه قد أخذه الزعل تعود وتدلله بكلام طيب وسرعان ما ينسىٰ كطفل. حين وصل إلىٰ منتصف الجبل الصغير الذي يعلو الحقول رأىٰ منظرًا أخضر بديع شكلته يد الإنسان وكسته الطبيعة حُلة من الجمال. الهندسة المدهشة لمدرجات الحقول، رغم تفاوت أحجامها، تدل علىٰ عبقرية الإنسان اليمني منذ القدم واستغلالهم كل شبر صالح للزراعة، وفهمهم لطبيعة أرضهم ومناخها، وتقديرهم لنسبة هطول الأمطار هو ما جعلهم يبنون هذه الحقول بهذا الشكل. كانت الساعة العاشرة صباحًا، وكانت الشمس مشرقة، والسماء صافية، وإلىٰ أذنيه تصل مهاجل المزارعين، وثغاء الأغنام وهي تسير في المروج، تسوقها راعياتٌ صغيرات يتمايلن مع كل هبة نسيم كتمايل الزهور.

"هذا وهُم يسمون هذه الأيام فصل الخريف."

قال لنفسه متسائلًا: لماذا يختلف التقويم الزراعي عن التقويم الذي يدرس في المدارس؟ حيث ترتسم في أذهان طلاب المدارس صورة الأشجار العارية من الأوراق والرياح التي تهب في كل اتجاه. إنها من علامات فصل الخريف بحسب المنهج المدرسي البعيد كل البعد عن البيئة اليمنية. ربما ما يسمونه خريفًا في بعض البلدان، يسمىٰ عندنا شتاء. أما الخريف في الريف اليمني فهو ما يطلق عليه في المنهج المدرسي، وربما في بعض البلدان، بالربيع.

كان جالسًا علىٰ صخرة بيضاء نظيفة متأملًا إلىٰ أن أيقظته نغمة الرسائل تنبعث من الهاتف الذي يكاد يختنق بالرسائل التي ترد تباعًا، وقد مضت عليه أيام عدة لم يفتحه. بدون اهتمام استعرض الرسائل الإخبارية وأخذ يقرأ الرسائل المرسلة من إخوته يستفسرون منه عن بعض الأمور المتعلقة بالعمل. أجاب عليهم بردود توضيحية قصيرة كما هي عادته. إلا أن الرسالة الأهم التي أثارت انتباهه هي من أخيه صالح:

"ضروري أن تأتي إلينا يوم السبت. أحمد تزاعل مع عمي محمد، وعمي غادر المحل." أنهىٰ قراءة الرسائل ولم يقم بإجراء أي اتصال. "الآن وقت الدوام في المنشار هم مشغولون." قال لنفسه، ونزل من الجبل يغني بأغنية شعبية تمجد مدينة عدن الأسطورية في المخيلة

الشعبية وتتمنىٰ لو كانت المسافة إلىٰ عدن تستغرق يومًا من الفجر حتىٰ مغيب الشمس:

"عدن عدن يا ليت عدن قريبة.. وامشي إليش (إليك) من فجر للمغيبة."

وجد زوجته تنتظره باسمة عند طرف الحقل فقال لها:

- ما هو اليوم؟
- أربعاء.
- وغدًا؟
- خميس. ما بك؟! لمَ هذه الأسئلة؟
- السبت أنا مسافر إلىٰ عدن. بقي لدينا فرصة اليوم وغدًا وبعد غد، فلا أريد أن نفوتها.
- لذلك تبدو فرحًا.
- العيال جاءتهم طلبية، وضروري أسافر لأعاونهم، ضروري نشقي علىٰ أنفسنا...

لاحظ عدم رضا في عينيها حين قالت:

- لم يمضِ عليك هنا سوىٰ أسبوع، لمَ العجلة؟
- أنا الأخ الأكبر، وتقع عليَّ مسئولية أكبر.

خيم صمت غريب، ثم قالت:

- تعال نُحَمِّل الحمار ودع عنك هذه اللقافة (الثرثرة). لقد تأخرنا.

حين التفت محمد رأىٰ الحمار وهو ينظر إليهما بعينين واسعتين وقد رفع أذنيه بشكل مستقيم نحو السماء وكأنه يدعو لهاذين الحبيبين بدوام السعادة والهناء. وقبل مغادرتهما الحقل طلب منها أن تلتقط له صورة تذكارية وهو في حقلهما الزاخر بمحصول الذرة الصفراء رفيعة القامة. لم يكن للهاتف كاميرا أمامية ليلتقط لنفسه "سيلفي". قال لها:

- أمسكي به هكذا. وعندما أبتسم المسي هذه الدائرة.

فعلت بيدين مرتعشتين، وبذهول الفتاه القروية من التكنولوجيا الحديثة قالت:

- آمنت بالله يا محمد! هذا التلفون يقوم بعمل كل شي يتصل، يصور، يغني!
- لم تري شيئًا بعد.

أخذ معطفه الملقىٰ بين الشجيرات وظهر من تحته سلاحه الشخصي نوع كلاشنكوف. ارتدىٰ المعطف، وحمل السلاح علىٰ كتفه ومضيا معًا نحو القرية. كان الحقل غير بعيد عن البيت إلا أنهما استغرقا وقتًا أطول للوصول؛ فقد كانا يمشيان ببطء ويقفان أمام كل من يلتقيان

به. تحدثا طوال الطريق عن أمور كثيرة، تارة يضحك وتارة يرد التحية علىٰ كل من قابلهما في الطريق. وقبل الدخول إلىٰ وسط القرية افترقا عن بعضهما. سلك هو طريقًا يمر من أمام دكاكين القرية حيث يجلس هناك باعة القات. اشترىٰ منهم له ولوالده. بينما مشت هي من طريق خلفي. وعند ملتقىٰ الطريقين وجدها واقفة تنتظره وهو يهبط من طريق منحدر. أكياس القات المعلقة علىٰ جنبيته تهتز وفي يده اليمنىٰ يحمل كيسًا كبيرًا مملوءًا بالموز وفي يده اليسرىٰ كيس آخر مملوء بالبرتقال، وسلاحه معلق علىٰ كتفه الأيسر. بدا مبتسمًا، لكنه لاحظ عدم رضا في عينيها السوداوين. كانت قد رفعت لثمة وجهها إلىٰ منتصف أنفها، وتُمسك بكلتا يديها طرفي قبعتها الفضية التي تضعها علىٰ رأسها. هي من صنعت هذه القبعة بنفسها، وطرزتها بالخيوط الملونة والأزهار الصناعية. كان محمد يحب هذه القبعة بشكل كبير، والتي تسمىٰ الظلة، حتىٰ أنه كان يرتديها معظم الوقت حين يكون مع زوجته في الحقل.

لا يذكر محمد اسم زوجته أمام الناس علىٰ الإطلاق؛ تحفظًا، ويحنق علىٰ والده إذا ذكر اسمها بالصدفة أو الخطأ أمام الناس، فكان والده يتعمد تعكير مزاجه مازحًا فيذكرها باسمها.

يعرف محمد أن لها فضلًا كبيرًا عليه؛ فبعد ثماني سنوات عجاف عاشها بعد إفلاس والده وهو في الثانية عشرة من عمره تحمل خلالها

مسؤوليات جسيمة وجثمت فوق صدره هموم كبيرة، أصرت والدته علىٰ تزويجه متحججة بضرورة وجود من يساعدها في القيام بمهام البيت بعد زواج أختيه، في حين كان محمد محبطًا بعد رسوبه في الصف الثالث الثانوي، رغم أن رسوبه بسبب تقطع أيام دراسته وعدم استطاعته التوفيق بين العمل والدراسة. وحين وجد أن هناك جارية طيعة أصبحت تحت خدمته استلذ الاستعباد الذي مارسه معها في بداية الأمر. ذلك الدور الذي وضعه لها مجتمع القرية، لكنه بدأ يؤنسن العلاقة بينهما، رغم رضاها بدور الخادمة، فكانت ملجأً جديدًا لمحمد بعد والدته، التي اختارتها له بعناية فائقة طبقت فيها المواصفات والمقاييس الزراعية والمنزلية، ولم تلتفت إلىٰ المؤهلات الأخرىٰ التي نماها محمد في زوجته، حتىٰ أصبحت زوجة وخادمة في الوقت نفسه.

مد يديه لتحمل عنه أكياس الفاكهة، لكنها لم تنزل يدها عن القبعة، بل اتضح له أنها تحمل سوطًا في يدها اليمني.

- حرام إنك تستاهل الضرب بهذا السوط. قالت له بحدة.
- لماذا هل تأخرت كثيرًا حتىٰ تضربيني؟

أشارت إلىٰ أكياس الفواكه التي يحملها وقالت:

- لِمَ تبعثر النقود علىٰ أشياء نحن في غنىٰ عنها!
- نأكل وسيأتي الموت.

أجاب عليها ساخرًا واتجه نحو البيت وهي تتبعه.

وعند وصوله وجد والده قد استيقظ للتو من نومة قبل الظهر التي اعتاد عليها حين يجلس علىٰ بساط قديم مرقع تحت شجرة الحوايجة التي تظلل الحوش.

- السلام عليكم.

حيا والده ووضع أمامه أكياس الفاكهة وناوله كيس قات ومضىٰ إلىٰ الداخل ليضع سلاحه. وعند خروجه وجد والدته فحياها وردت عليه التحية وأضافت:

- أعانك الله يا حيدنا العالي.
- يعين الله الجميع.
- ليش كل هذا؟ ليش أنت مثل والدك لا تدخر شيئًا؟

وهو يتذوق الموز رد عليها زوجها الحاج عبده ببيت شعري يرتجزه دائمًا لمنعها من التدخل:

- "نأكل لنا من حقنا.. ما حد علىٰ أبوه مننا."

بعد تناولهم طعام الغداء صعد محمد إلىٰ غرفته في الطابق الثاني لمبنىٰ غير مكتمل البناء يتكون من أجزاء متفاوتة الحجم، والارتفاع وجودة البناء وإتقانه، ويعكس كل جزء الحالة الاقتصادية للحاج عبده في

مراحل بنائه. النواة الأولىٰ للبيت، وتسمىٰ "التوثرة"، بناها في بداية الثمانينيات من القرن العشرين. وهي عبارة عن بيت صغير مربع الشكل مبني من الأحجار المحلية للقرية. ينفتح بابها نحو الجنوب أو ما يعرف بالجهة العدنية، وعلىٰ يمين الداخل من الباب توجد درج حجرية توصل إلىٰ الدور الثاني الذي توجد به غرف نوم الأبناء. بعد خطوات قليلة من الباب يوجد علىٰ يسار الداخل باب لغرفة صغيرة لا تزيد مساحتها علىٰ عشرة في خمسة أذرع تليها غرفة مشابهة لها تمامًا. تقابل هاتين الغرفتين، في الجزء الشرقي للبيت، غرفة كبيرة واحدة، تبلغ مساحتها ثمانية أذرع عرضًا في عشرين ذراعًا طولًا، وتسمىٰ بـ "المكان" وتستخدم حاليًا غرفة للمعيشة، وإلىٰ جانبها يوجد حمَّام، وتجتمع الأبواب في صالة صغيرة تسمىٰ "الموسطة". كان "الذراع" ولا زال هو وحدة قياس المساحة في اليمن، ولم يستخدم الناس القياس بالمتر إلا مؤخرًا. وفي الجهة الشمالية، التي تسمىٰ الجهة القبلية للبيت، وملاصقًا له، يمتد "الديوان"، وله باب مستقل عن باب البيت. الديوان بناه الحاج عبده وهو في أفضل أيامه من الناحية الاقتصادية، حيث كان يمتلك محلات عدة لمناشير الأحجار منها ما هو ملكية خاصة به وبعضها مشاركًا فيها أناسًا آخرين.

يعد الديوان مفخرة البيت اليمني بحق؛ يهتمون به اهتمامًا كبيرًا من حيث جودة البناء وسعة المساحة، وقد طبق الحاج عبده هذان الشرطين حيث أحضر أمهر البنائين في منطقته ووفر الأحجار التي قصها في مناشيره بكميات كافية وجودة ممتازة، وقد حطم الرقم

القياسي في حينه حين أصبح ديوانه أكبر ديوان في القرية، بطول خمسة وعشرين مترًا وعرض أربعة أمتار، وبواجهة حجرية حديثة مستوحاة من شكل القصر الجمهوري في صنعاء. صممت له نوافذ واسعة مؤطرة بأحجار تختلف في لونها عن أحجار الواجهة، وما يميز هذا الديوان أكثر، هو إطلالته من ارتفاع شاهق على وادي القرية. يهتم اليمنيون أيضًا بزخرفة الدواوين وفرشها بشكل مميز، إلا أن هذا لم يحدث لديوان الحاج عبده، فقد بدأت أحواله الاقتصادية في التدهور، ولم تتم عملية تشطيب الديوان إلا في وقت متأخر بمواد رخيصة وبطريقة غير مناسبة لديوان مثله، كما تم فرشه بفرش بسيط وغير وثير كما كان مخططًا له. ولما كانت نوافذ الديوان السفلية واسعة فضلًا عن عددها الكثير لم تركب لها شبابيك الألمنيوم كما كان يفترض فقاموا بسدها بالبُلك واكتفوا بتركيب النوافذ القمرية العلوية. وحين قرر محمد تركيب نوافذ للديوان قبل زواج أخويه أحمد وصالح رفضت والدته، متحججة بالحروب التي تشتعل في القرية بين الحين والآخر قائلة: حتى الذين في بيوتهم نوافذ يقومون بسدها وقت الحرب.

تتناثر حول بيت الحاج عبده بعض الغرف والملحقات التي تستخدم كزرائب للحيوانات ومخازن للأعلاف، وأقربها إلى باب البيت هو المطبخ اليمني التاريخي الذي يعرف باسم "الديمة"، ويوجد فيه التنور البلدي كثير الدخان.

خرج محمد من الباب في كامل أناقته فوجد أمه عند باب البيت تقوم بإطعام البقرة العلف. سألها ما إذا كان والده يتناول القات في الديوان، أم أنه خارج البيت؟

- "سار يخزن بيت عامر.." وتابعت: "أين زوجتك؟"

- في الخلوة.. ستأتي الآن.
- قل لها تنزل... لا تزال أطباق الغداء بدون غسل.. قالتها بحنق وأضافت: لدينا أعمال كثيرة يجب القيام بها بدلًا من الجلوس في الخلوة.

حين صعد محمد إلىٰ غرفة نومه، التي تسمىٰ "الخلوة"، وجدها نظيفة ومرتبة، وممتلئة بالضوء المنسكب من نافذتها الغربية. كانت غرفة بسيطة مشطبة بالأسمنت ولا زالت جدرانها بدون طلاء، وأرضيتها مفروشة بموكيت أزرق فاتح اللون، وفي إحدىٰ زواياها يوجد دولاب خشبي محلي الصنع، وفي زاوية أخرىٰ فراش الزوجين: فراش إسفنجي عرضه مئة وعشرون سنتيمترًا وطوله متران، وسمكه عشرة سنتيمترات. ترفعه الزوجة في الصباح بموازاة الجدار وتطبق البطانية التي تغطيهما وتضعها مع الوسادة التي تجمع رأسيهما فوق الدولاب. كما توجد في الغرفة صُفَّة حجرية ناتئة بطول الجدار الغربي وضعت فوقها بعض الكتب، وبعض العاديات وأشياء أخرىٰ، ومرآة متوسطة الحجم. ما أن دخل حتىٰ ألقىٰ بالفراش إلىٰ أرضية الغرفة، وحين غادرها ترك خلفه فوضىٰ عارمة، ملابس ملقاة علىٰ الأرض ومنشفة مبللة يجب نشرها لتجفيفها، حتىٰ المشط الذي سرَّح به شعر رأسه لم يرده إلىٰ مكانه.

ارتدىٰ ملابسَ أخرىٰ غير التي كانت عليه في الصباح، وطلب منها غسل الملابس التي خلعها.

حين وجد محمد أمه مستاءة من تأخر زوجته صرخ بصوت مرتفع يناديها بأن تستعجل، وقبل رأس والدته ومضىٰ إلىٰ والده حيث سيتناولان القات معًا.

حين دخل إلىٰ المقيل قوبل بضحكات أبناء عمومته ومزاحهم معه: "لم نعد نراك إلا نادرًا..". "لقد سيطرت عليك سيطرة كاملة." ولكن ما أفزعه هو ما سمعه من عمه الحاج محمد عامر حين قال:

- الجماع في النهار يؤدي إلىٰ العمىٰ وأنت وعبده ولدي ستصابان بالعمىٰ قريبًا، إن شاء الله.

سرت رعشة غريبة في جسد محمد وقد أيقن أن هذا القول نابع من حكمة رجل مسن جرَّب الحياة وخبرها أكثر منه. وما جعله يصدق أكثر أنه لا يكاد يميز وجوه الحاضرين إلا بصعوبة. كان قد ظن في البداية أن هذا بسبب دخوله المفاجئ من الضوء إلىٰ العتمة، لكن كلام الحاج محمد عامر أدخله في دوامة من الوساوس والأسئلة، قبل أن ينتشله والده منها بذكره للمثل الشعبي:

- "قتيل الماء ولا قتيل الظمأ." يا محمد عامر، دعهم يعيشون حياتهم. والتفت إلىٰ محمد قائلًا: لا تصدق يا حيد أبوك، استمر فأنا ووالدتك نريد أن نرىٰ أولادك ولن تحبل زوجتك إلا بما تقوم به.

لم يكن محمد آخر الداخلين إلىٰ المقيل، فقد استمر الرجال بالتوافد حتىٰ وصلوا إلىٰ منتصف الديوان. كانوا أكثر من عشرين رجلًا.

أخبرهم أبو عايض، ابن عم محمد، أن يحيىٰ العمري محافظ محافظة صعدة، وابن منطقتهم قد طلب أن يلتحق به شباب من أبناء المنطقة.

- من المجنون الذي سيذهب للقتال في صعدة مع يحيىٰ العمري؟ قالها الحاج عبده وأضاف: لن يذهب معه أحد.

وتدخل الحاج محمد عامر مؤيدًا وجهه نظر الحاج عبده قائلًا:

- هم هكذا المسؤولون حقنا، وقت الشدة يتذكرون أبناء مناطقهم ووقت الرخاء ينسوننا.

لم يستغرب محمد ازدراء والده لطلب العمري. كان والده متعاطفًا مع الحوثيين منذ بداية الحرب الأولىٰ. كانت عبارة "كذاب وجهك" هي ما يطلقها بعد كل عبارة يتكلم بها الرئيس صالح في خطاباته التلفزيونية

وهو يتحدث عن حروب صعدة، وكثيرًا ما كان يردد الحاج عبده عبارة: "الدولة حقهم والنبي جدهم"، قاصدًا بذلك الحوثيين.

هنا تحدث محمد، موجهًا كلامه إلىٰ أبو عايض، الجندي في شرطة النجدة:

- يوجد مئات الآلاف من الجنود في الجيش بل قيل إن عددهم قد تجاوز المليون جندي. أضاف مازحًا: كما أنكم في الشرطة لا تقومون بعمل شيء، فلماذا لا تذهبون لقتال الحوثيين؟ لماذا يطلب منا العمري أن نذهب للقتال بدلًا عنكم، وأنتم من يستلم الرواتب من خزينة الدولة؟!

- العمري لا يريد مقاتلين، بل أفرادًا يثق فيهم للحراسة الشخصية. وضح لهم أبو عايض الأمر أكثر بقوله: أما بشأن القتال فلم تتدخل إلا بعض ألوية المحور الشمالي الغربي الذي يقوده علي محسن الأحمر من مقر الفرقة الأولىٰ مدرع في صنعاء، ويساند هذا المحور بعض الأعداء الطبيعيين للحوثيين، بالرغم أن التوجيهات قضت برفع الجاهزية في كل وحدات الجيش والأمن، إلا أن الأوامر لم تصدر بالقتال.

- من تقصد بالأعداء الطبيعيين؟ الحوثيين؟ وجه إليه محمد السؤال مستغربًا من هذا المصطلح المستخدم في الهندسة الزراعية!

- مشايخ آل الأحمر والسلفيون تجمعهم عداوة كبيرة للحوثيين وهم من يساند علي محسن الأحمر وجنوده.

قال الحاج محمد عامر:

- لو تتحرك قبيلة حاشد ستهزم الحوثيين.
- لن تتدخل، أعرف ذلك. قال أبو عايض وأضاف: وقد لاحظت انحسار شعبية أولاد الأحمر حين شاركت في اللجان الأمنية الانتخابية في عام ٢٠٠٦ م. الناس هناك يكرهونهم كرهًا شديدًا، وقد تنافس يحيىٰ الحوثي مع أحد أبناء الشيخ الأحمر في دائرة انتخابية وفاز يحيىٰ الحوثي بعضوية مجلس النواب.

قال الحاج عبده:

- للحوثيين شعبية كبيرة في مناطقهم هم يفوزون بعضوية مجلس النواب، في الدورة الأولىٰ فاز حسين الحوثي، والآن أخوه يحيىٰ.

وهنا فاجأ الجميع صوت مقبل العوي، وهو زوج خالة محمد، بقوله:

- أنا سأذهب مع يحيىٰ العمري.
- اجلس اترعوىٰ (اهتم بأرضك) أخرج (أفضل) لك من مرافقة العمري يا مقبل. قال له الحاج محمد عامر.

أجابه بخبث يخالطه الضحك:

- قيل لي إنه يصرف أسلحة أمريكية لمرافقيه، إذا حصلت علىٰ واحد منها فخير من وجهه... سأعود فور استلامي السلاح.

شجَّعه الكثير من الحاضرين، مؤكدين أنه وحده القادر علىٰ اغتنام شيء من الدولة التي لا تعطي أحدًا.

كان يحيىٰ العمري، محافظ محافظة صعدة، شخصًا شديد الولاء للرئيس علي عبد الله صالح، وقد أشيع حينها أنه أيضًا عميل للولايات المتحدة الأمريكية، التي تدعم بقاءه في منصبه لتنفيذ أجندتها في حرب الحوثيين. في حين كان البعض يرون أن يحيىٰ العمري يقوم بدوره المعتاد كرأس هرم السلطة المحلية في محافظة صعدة. لكن ما لم يلتفت إليه أحد هو تلميعه إعلاميًا حتىٰ صار نجمًا. فضمن التنافس والصراع علىٰ السلطة والثروة بين قطبي النظام الحاكم المتمثل في الرئيس علي عبد الله صالح ومشائخ آل الأحمر، قام الرئيس صالح بافتتاح شركة اتصالات حكومية لتكسر احتكار الشركة التي يملكها آل الأحمر، والتي أثروا منها ثراءً فاحشًا، وأثناء حفل الافتتاح أراد صالح تقديم دعاية مجانية للشركة فقام بالاتصال بمحافظي المحافظتين النائيتين، صعدة والمَهَرَة، وتبعد هذه الأخيرة عن العاصمة صنعاء بأكثر من ألف وخمسمائة كيلو متر شرقًا. كانت الساعة العاشرة صباحًا في صنعاء وقت

الحفل إلا أنها قد صارت الثانية عشرة ظهرًا في المهرة حسب فارق التوقيت، وعلىٰ الهواء مباشرة وأمام ضحكات الحاضرين من كبار رجال الدولة وسخريتهم وجد الرئيس صالح أن محافظ محافظة المهرة لايزال نائمًا ولم يستيقظ بعد. محمد وكل أبناء منطقته كانوا فخورين بذلك المشهد الذي سقط فيه محافظ المهرة، ابن قبيلة حاشد ناجي الضليمي سقوطًا مدويًا وارتفع فيه صاحبهم يحيىٰ العمري محافظ محافظة صعدة، إذ وجده الرئيس صالح يقظًا، تحدث معه بشأن شركة الاتصالات الجديدة والهدف من افتتاحها.

لم يفطن الكثيرون، ومنهم محمد، أن الهدف من تلك الحملة الإعلامية من قبل الرئيس صالح- والحملات التي يشنها خصومه ضده أيضًا- هي إرهاصات ما قبل الربيع العربي.

❊ ❊ ❊

٥

عاد عبد الله مبكرًا من الحوبان بدون أحجار. حين سأله محمد عن السبب قال:

- كل من اتصلنا بهم لم يستطيعوا الخروج من الجبل.
- لماذا؟
- اشتباكات شديدة بين الحوثيين والمقاومة في جبهة الصِّلْو، أدت إلىٰ قطع الطريق. لم يجرؤ أحد أن يخاطر بنفسه، إنهم عالقون.
- ماذا عن الديزل؟
- لا يوجد في أية محطة ديزل حكومي. سنضطر إلىٰ الشراء من السوق السوداء.

قام صالح بإعداد متكآت أمام غرفة المكتب له ولأصدقاء جاءوا لتناول القات إلىٰ جانبه من المناشير المجاورة. وبما أن اليوم التالي هو الجمعة، عطلتهم الأسبوعية، فقد يستمرون في مضغ القات في الهواء الطلق حتىٰ منتصف الليل. كان علوي قد قام بحشو ذاكرة هاتفه بآخر زوامل عيسىٰ الليث، منشد الحوثيين، وأخذ ينسخها ويرسلها لكل المتواجدين، فطلب منه محمد أن يستمع إليها، فقال علوي:

- سأرسلها لك إذا أردت... افتح "زابيا" أو "إسكندر".
- لا، لا. أريد فقط الاستماع من هاتفك..

ناوله علوي الهاتف وما أن قربه محمد من أذنه حتىٰ علق علوي قائلًا:

- قوة... أليس كذلك.

هز محمد رأسه موافقًا.

قال ناجي: ليس لدينا منهم غير الزوامل. وأضاف محذرًا علوي:

- انتبه تذهب إلىٰ مناطق سيطرة الشرعية وفي هاتفك هذه الأشياء... سيتم اعتقالك بسببها ولن يعرف أحدٌ مكانك.

رن الهاتف فإذا هو الحاج عبده يطمئن عليهم ويطمئنهم أن أخاهم أحمد قد وصل البيت بالسلامة. ويبدو أنه استفسر من محمد عن سبب سفره المفاجئ وغير المتوقع وما إذا كان قد حصل بينهما أي خلاف. أخذ محمد يؤكد لوالده أنه لم يحدث أي خلاف علىٰ الإطلاق. أخبره والده أن والدتهم تريد التحدث إليهم وسماع أصواتهم. أخذ محمد يرحب بوالدته ويطمئنها أنهم جميعًا بخير وأن جميع أمورهم تمام التمام. سألها عن صحتها وعن صحة أطفالهم وما إذا كانوا يحتاجون شيئا للبيت. فقالت له إنهم بخير ولا يريدون إلا عافيتهم. طلبت أن تتحدث إلىٰ إخوته فناول التلفون لصالح الذي تحدث أقل من محمد. وعندما أتىٰ دور عبد الكريم أخذ التلفون وصعد السلم متجهًا إلىٰ الدشمة في سطح المكتب ومكث يتحدث إلىٰ والدته نحو نصف ساعة.

عاد محمد إلىٰ هاتفه القديم وأخذ يتأمل فيه. قام بفتح قائمة الأسماء فتبسم من طريقته في كتابة الأسماء. كان ولايزال يُكثر من حروف الألف قبل أسماء والده وإخوته ليكونوا في أول القائمة حتىٰ مع إمكانية تخصيص قوائم للعائلة والأصدقاء والعمل في معظم الهواتف إلا أنه لم يستطع التخلص من هذه العادة حتىٰ الآن. يشعر أنهم أقرب إليه حين يكونون في أول قائمة الأسماء.

أخذ يتنقل بين الأسماء ولاحظ كثرة الأسماء التي تبدأ بالكنية أبو فلان: أبو عايض، أبو حازم، أبو جمال، أبو حسين... لم تعد هذه الطريقة مستعملة عنده الآن في هاتفه الحديث. لقد غيرت الحرب مفاهيم الناس ومسخت هوياتهم. طالما أنك لست طرفًا في الحرب فلماذا تورط نفسك بأشياء لا دخل لك فيها! مرت عليه ذكرىٰ مفزعة بسبب هذه الكنىٰ. إذ تم اعتقال أخويه أحمد وعبد الله مع اثنين من أبناء عمهم في محافظة لحج حين خروجهم من عدن في منتصف العام ٢٠١٥ م. اعتقلتهم قوات جنوبية بتهمة الانتماء إلىٰ الحوثيين. كان الانتماء إلىٰ أي من المحافظات الشمالية بشكل عام يكفي للاعتقال في المحافظات الجنوبية بداية الحرب. أما الانتماء إلىٰ محافظة ذمار فقد يؤدي إلىٰ أسوأ من ذلك. كانت أدلة الانتماء إلىٰ الحوثيين واضحة وأكثر من أن ينكرها إخوته وأبناء عمه حسب كلام الذين اعتقلوهم: يرتدون ثيابًا حوثية، ويتكلمون

بلهجة حوثية أيضًا، والأهم من ذلك أن هواتفهم تمتلئ بأسماءٍ حوثية. مرت علينا ثلاثة أشهر كقرن من الزمن. هكذا قال لهم محمد حين التقىٰ بهم بعد الإفراج عنهم، وسألهم ما الذي حدث؟ فقص عليه أخوه القصة قائلًا:

لم نستطع الخروج من محلنا لمدة شهرين منذ بدء الغارات الجوية السعودية. جاء أولاد عمي حسين إلىٰ محلنا حين دارت المعارك بالقرب من محلهم الذي يقع إلىٰ جوار معسكر اللواء الخامس. أصبحنا الأربعة محاصرين في محلنا ولولا جيراننا الطيبين لمتنا من الجوع والعطش. كان لدينا نقود لكن لا توجد مطاعم أو متاجر مفتوحة. جميعها أُغلقت أبوابها، كذلك المواصلات العامة انقطعت بالكامل، وحتىٰ لو خرجنا سيرًا علىٰ الأقدام ما كنا سننجو؛ لأن الاشتباكات عمت كل المناطق.

بعد دخول الحوثيين إلىٰ عدن بدا الوضع وكأن كل شيء قد انتهىٰ وحُسم الأمر... لكن بعد تدخل السعودية اشتعلت الحرب في كل مكان، فأصبحنا عالقين، وبعد ثلاثة أشهر أصبحت المناطق التي تحت سيطرة قوات الحوثيين مقطعة الأوصال. بدأ الناس يتكيفون مع الحرب. بدأت بعض المتاجر تفتح أبوابها وحركة السيارات تنشط، بحثنا عمن ينقلنا. اتصل ابن عمي حسين بصديق له من السلفيين أخبره أننا عالقون وطلب منه أن يساعدنا للخروج فوافق. بعث لنا بسيارة أجرة إلىٰ المحل، طلبنا

منه نقلنا إلىٰ تعز فطلب خمسة وعشرين ألف ريال عن كل فرد منا. وافقنا علىٰ طلبه وانطلقنا في الصباح الباكر، وبعد مغادرتنا المحل بنصف ساعة اعترضتنا مجموعة مسلحة. أوقفوا السيارة وطلبوا منا النزول. ما أن ترجلنا عنها حتىٰ أخذوا بضربنا بأعقاب البنادق وقاموا بوضع الكلبشات في أيدينا وغطوا علىٰ أعيننا واقتادونا إلىٰ مكان مجهول بالنسبة لنا. أخذوا هواتفنا وكل ما بحوزتنا من أموال، اعتقدنا حينها أن ذلك السلفي قد خاننا، ولا نعرف ما إذا كان لسائق السيارة دور؛ فلم نعرف مصيره.

- ما الذي حدث بعد ذلك؟

- في ليلة اعتقالنا جاء ثلاثة رجال للتحقيق معنا.. وطلبوا منا إخبارهم من نتبع؟ ولماذا جئنا إلىٰ عدن؟ وحين أخبرناهم أننا نعمل في مناشير الأحجار ولا علاقة لنا بأي طرف. قالوا إن هواتفنا شاهدة علينا وسألونا من هما أبو حسين وأبو عبده اللذان قمنا بأجراء آخر مكالمتين معهما؟ قلنا هم إخواننا، فلم يصدقوا وقالوا إنها أسماء القادة والمشرفين الذين نعمل تحت إمرتهم. قلنا لو كنا عسكريين أو حوثيين فإننا لن نحمل هواتف تعمل باللمس؛ إذ كانوا يظنوننا إما حوثيين أو من الحرس الجمهوري. تركونا في زنزانة مظلمة بدون أكل أو شرب. حينها

قلت لابن عمي: لقد خاننا صديقك السلفي وباعنا لهؤلاء الوحوش بمئة ألف ريال.

لم يخنهم السلفي بل هو من أخبر محمد بخبر اعتقالهم. في اليوم التالي اتصل رقم غريب بمحمد وأخبره أن أخويه وابني عمه معتقلون لدى إحدى الفصائل الجنوبية المقاتلة وأنه سيعمل على إخراجهم ولو كلفه ذلك حياته. وحين سأله محمد:

- من معي؟ وكيف عرفت ذلك؟

أجاب:

- أنا صديق ابن عمك.. من ساعدهم على الخروج من عدن، أخبرني سائق السيارة الذي نقلهم.

كان سائق السيارة قد عاد إلى ذلك الشخص وأخبره بما حدث، وفور معرفته بالخبر انطلق مع مجموعة مسلحة من جماعته على متن سيارتين وعند وصوله إلى معتقليهم وضعهم أمام خيارين إما إخراجهم من السجن أو المواجهة فتم إخراجهم وقام بمرافقتهم إلى آخر نقطه للجنوبيين.

كان محمد أيضًا يعرف بعض الأشخاص سلفيي المذهب في عدن لكنها معرفة سطحية، ولم تكن علاقته تصل به إلى مستوى الصداقة، ولكنه اتصل بهم أيضًا وطلب مساعدتهم، والحقيقة أن المناشير التي

يمتلكها أبناء محافظة ذمار ليست في محافظة عدن بل في محافظة لحج وبالتحديد في منطقتي الفيوش والرباط. حيث توجد مراكز كبيرة للسلفيين، بالقرب من المناشير، وهي مناطق تابعه إداريًا لمحافظة لحج، ولكنهم يطلقون على المناطق المنبسطة، مما يلي سلسلة جبال ردفان، اسم عدن، ويعتبر اسم عدن في الثقافة والذاكرة الشعبية في ذمار اسمًا جامعًا لمحافظات لحج، وعدن وأبين.

لم يكن في هواتف المعتقلين أي شيء من أدبيات الحركة الحوثية. لا زوامل، ولا محاضرات، ولا صور، بل كانوا ممن يمقتون الحوثي وشعاراته. كل ما وجدوه في هواتفهم هي تلك الأسماء التي تبدأ بالكنية وكانت كافية لاعتقالهم. ومع الأيام تواترت الأخبار التي تؤكد اعتقال أشخاص في مناطق عدة من البلاد بسبب أسماء تبدأ بالكنية الشائعة عند الحوثيين.

نحن الذين لا علاقة لنا بالحوثيين أصبحنا حوثيين أو هكذا يراد لنا.

استمر محمد في مطالعة الأسماء. قائمة طويلة للأهل والأصدقاء، والمعارف، وشركاء في المهنة، وعمال، وزبائن. شعر بحزن شديد حين مر على أسماء لاتزال محفوظة في هاتفه، لكنه لم يعد قادرًا على الاتصال

بهم الآن. قبل عشر سنوات كان يتصل بهم، ويبعث إليهم بالرسائل النصية القصيرة، ويتحدث معهم حين يلتقي بهم.

"عمي محمد". قرأ محمد الاسم وقال لنفسه: رحمك الله يا عم. كان من أوائل من التهمتهم الحرب.

❉ ❉ ❉

٦

كان تطبيق الرسائل هو المفضل لدىٰ محمد للتواصل مع الآخرين؛ كونه يتناسب مع شخصيته الهادئة المحبة للهدوء، ثم إن الرسائل أكثر فعالية عند ضعف التغطية، وهي المشكلة المزمنة لدىٰ جميع شركات الاتصالات اليمنية. مع الرسائل المكتوبة لن يكون عليه رفع الصوت عند إجراء اتصال، أو سماعه متقطعًا عند استقبال آخر. كان يقوم بإرسال الرسائل النصية حين لا يفهم ما يقوله الشخص المتصل. يقوم بقطع الاتصال وإرسال رسالة نصية قصيرة، حتىٰ صار معروفًا عنه لدىٰ أقاربه وأصدقائه أنه يتعامل بالرسائل أكثر من الاتصالات. لعل شغفه القديم بالقراءة هو دافعه، وعززت من ذلك الدافع رداءة الخدمة المقدمة من شركات الاتصالات، وقد أثبتت الأيام نجاعة هذه الطريقة؛ إذ كان يحتفظ بمعظم الرسائل لفترات طويلة كإثبات إذا حاول أحدهم التنصل من عمل ما طلب منه القيام به.

كما كان مشتركًا دائمًا في بعض القنوات والمواقع الإخبارية، التي تقدم خدمة الأخبار العاجلة عبر الرسائل النصية، وبهذه الخدمة استغنىٰ عن شراء الصحف المحلية. وحين قام بتفعيل خدمة الإنترنت لأول مرة وجد كل القنوات الإخبارية لديها مواقع رسمية علىٰ شبكة الإنترنت، فكان يقوم بتصفحها بشكل يومي.

كـان قـد قـرأ وسـمع الكثيـر عـن الإنترنـت والثـورة المعلوماتيـة، والطفرة الرقمية، وحين ولج إلىٰ هذا العالم لم يكـن راضيًا، كـل الرضـا، عن المحتوىٰ العربي علىٰ الإنترنت. انتقىٰ مواقع إخبارية وثقافية يتابعها باستـمرار ومواقـع ترفيهيـة أيضًـا؛ فقـد كـان في عصـر التلفزيـون يفضـل مشـاهدة الأفـلام الهادفـة، كمـا كـان يفضـل الاسـتماع ومشـاهدة أغـاني الطرب الأصيل اليمني والعربي. وقد بقي علىٰ الذائقة نفسها في عصر الإنترنت مع ميزة الحرية الكاملة؛ فهو يستطيع قـراءة أو مشـاهدة مـا يشـاء وقتما يشاء.

فتح محمـد تطبيـق الرسـائل فظهـرت قائمـة طويلـة مـن المحادثـات التي كان قد اختار حفظها في الهاتف؛ فلم تفقد عند إزالـة الشـريحة. سُعد كثيرا بوجودها وحمد الله أنه لم يمسحها. أخذ يتنقل بين المحادثات وهو يشعر كما لو أنه يقلب مخطوطات تاريخية عمرها قرون. كـان مشـتركًا في خدمة الرسائل الإخبارية من موقع ٢٦ سبتمبر، الحكومي التابع للجيش، وكـذلك موقـع المـؤتمر نـت، التـابع للحـزب الحـاكم، وموقـع المصـدر أونلايـن، التـابع لجماعـة الإخـوان المسـلمين. كـان العـدد الأكـبر مـن الرسائل التي وجدها محفوظة من هذا الموقع، آخرهـا رسـالة تؤكـد إلغـاء الاشتراك بعد أن قام محمد بطلب ذلك؛ لكثرة الرسائل، ولكنـه لسـبب مـا لم يقم بمسح الرسائل السابقة.

"وتلك الأيام نداولها بين الناس.." قالها محمد بصوت مسموع وهو يقرأ رسالة تقول: "الشيخ حميد الأحمر يحذر السلطات من نفاد صبر الشعب تجاه سياستها التجويعية والقمعية". ورسالة أخرىٰ تقول: "في الاجتماع الاستثنائي لقيادة أحزاب اللقاء المشترك، النائب صخر الوجيه يهدد باللجوء إلىٰ الشارع إذا لم تُعد الحكومة النظر في تسعيرة الخبز". كان تاريخ وصول الرسائل في عام ٢٠١٠م. كانت حركة الإخوان المسلمين في تلك الفترة في أوج قوتها علىٰ المستويين المحلي والدولي. محليًا استطاع حزب التجمع اليمني للإصلاح، فرع التنظيم الدولي للإخوان في اليمن، من فرض نفسه كشريك في السلطة بعد مشاركته الواسعة بكل أجنحته العسكرية والقبلية في الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب عام ١٩٩٤ م، ولكن الرئيس علي عبد الله صالح استحوذ علىٰ كل شيء وشرع في توريث السلطة ونقلها إلىٰ أبنائه.

كانت أسوأ الرسائل هي التي تخبر عن اعتداء تخريبي لخطوط نقل الطاقة الكهربائية من محطة مأرب الغازية. وكأي نشاط صناعي، يتطلب استمراره وجود كهرباء، كانت مناشير قص الأحجار تتضرر تضررًا بالغًا من هذا التخريب، وتتكبد خسائر فادحة جراء انقطاع التيار الكهربائي. كان محمد يقرأ تلك الرسائل بصوت مرتفع لا يخلو من السخرية المرة المختلطة بالسخط الشديد. حين كانت تنطفئ المناشير فجأة يعرف

الجميع أن اعتداءً تم علىٰ خطوط نقل الطاقة، رغم أن الرسالة الإخبارية لم تأت بعد لتؤكد ذلك. وبالرغم من هذه الظروف السيئة استطاع محمد وإخوته افتتاح محل في تعز ليكون فرعًا لمحل عدن، ليس رفاهية بل لما اعتقدوه ضرورة؛ بسبب اشتداد الحراك المطالب بانفصال جنوب اليمن عن شماله، وحتىٰ لا يجدوا أنفسهم في الشارع دون محل لو أنهم طُردوا من عدن.

حتىٰ عام ٢٠١٠م كان محمد مديرًا لمحل والده الكائن في عدن، وكان يعمل لديه عمه محمد المعروف بالجرادي وهو أخ غير شقيق لوالده، وأصغر من والده بنحو عشرين سنة، إضافة إلىٰ أخويه أحمد وصالح، وثلاثة عمال آخرين.

كان العم محمد الجرادي شخصًا مرحًا وخفيف الظل، وبقدر ما كان معلمًا بارعًا في تشكيل وقص الأحجار بالمنشار، كان أيضًا كسولًا وكثير النوم، ويكثر من تناول القات، ويدخن بشراهة. رغم فتور العلاقة بين الحاج عبده وأخيه غير الشقيق، وانقطاعها في أوقات سابقة، استطاع محمد استمالته إلىٰ جانبه حين كبر وتولىٰ إدارة المحل، وأقنع والده بضرورة أن يشتغل عمهم معهم ليستفيدوا من خبرته التي كان الحاج عبده يشيد بها. بعد أن وافق علىٰ مضض حذر محمد من الاستماع إلىٰ عمه، ونصحه بعدم تصديق رواياته وأخباره. وعده محمد بذلك، ولكنه

استغرب من تحذير والده! فما عساه أن يخبره عمه واستدعىٰ تحذير والده منه!

حين كان يراقب كلام عمه لم يجد فيه شيئًا يدل علىٰ خبث طوية، أو سوء نية. بل وجد محمد وإخوته في عمهم الجرادي متنفسًا يتكلمون معه بأشياء ما كانوا يجرؤون علىٰ التحدث بها همسًا أمام والدهم. كان العم محمد الجرادي يحفظ الكثير من الأشعار الماجنة، والنكات الجنسية، ويعرف أشياء كثيرة لا يعرفها الشباب عن المرأة. وفي إحدىٰ المرات التي انقطع فيها التيار الكهربائي خرج العم محمد الجرادي من المنشار وهو يشتم حميد الأحمر وحزب الإصلاح بشتائم بذيئة جدًا جعلت كل من حوله يضحك.

- هل تعتقد أن حميد الأحمر هو من يقطع خطوط الطاقة؟

سأله محمد وأضاف:

- لماذا يفعل ذلك برأيك؟
- لكي يفشِّلوا الرئيس علي عبد الله صالح، فينتفض الشعب ضده.

كان يعمل إلىٰ جانب الإخوة وعمهم عاملان من تعز هما عبد العالم من منطقة الحجرية وعائد الصبري من جبل صبر، والعامل الثالث يدعىٰ مختار الصبيحي وهو جارهم، وبيته قريبة من المنشار، وهو من

يقـوم بالحراسـة في أيـام الأعيـاد حـين يغـادر أصـحاب المنشـار محلهـم لقضاء إجازة العيد في منطقتهم ووسط أهلهم.

كان عبد العالم يدرس في أحد المعاهد المهنية في منطقتـه ويـأتي إلىٰ عدن للعمل وكسب العيش أثناء العطلة الصيفية، ثـم يعـود أيـام الدراسـة. هو شاب أسمر الوجه نحيل البنيـة، لكنـه ذكـي جـدًا، خاصـة فيمـا يتعلـق بالهندسة الميكانيكيـة والصـيانة. كـان محمـد يعتـبر عملـه لـديهم مكسـبًا. فإلىٰ جانب عمله كان يتطوع معهم للصيانة، وكان يرشدهم إلىٰ أي خلـل ممكن الحدوث قبل حدوثه.

عائد الصبري لم يكن متعلمًا. كان يصرف علىٰ أخيه وأختـه اللـذين يدرسـان في جامعـة تعـز. كـان محمـد ينظـر إليـه نظـرة إعجـاب، ويشـيد بكفاحه، خاصة فيما يتعلق بإصراره علىٰ تعليم أخيـه وأختـه. كـان يقـول لمن حوله، حين ينصرف الصبري لتحويل المـال لعائلتـه بعـد أن يحاسـبه محمد: لديهم إصرار عجيب علىٰ التعليم، بـالرغم مـن قلـة إمكانيـاتهم. ولـدينا دخـل أفضـل مـنهم ولكننـا نفتقـر إلىٰ تفكيـرهم وطمـوحهم. كـان الصبري شابًا قصير القامـة، وكـان خجـولًا ودائـم الابتسـامة. وقـد أتـىٰ في البداية ليشتغل عاملًا، لكن شغفه بالعمل، وسعيه وراء زيـادة أجـره مكّنـاه مـن فهـم الحرفـة، وكـان محمـد يشـجعه علىٰ ذلـك لمـا لمـس منـه مـن

إخلاص في العمل. كان ذلك الشاب لا يكل ولا يمل من العمل، وكان يصر علىٰ إكمال دوامه حتىٰ لو استمروا إلىٰ ساعة متأخرة من الليل.

كانت التاسعة صباحًا حين انقطع التيار الكهربائي عن الحارة التي يقع فيها المحل. ذهب الجميع للاغتسال جوار عداد المياه. بينما مكث عائد الصبري وأحمد وجارهما مختار يتحدثون في انتظار عودة التيار الكهربائي.

كان محمد جالسًا في الظل أمام غرفة المحل مرتديًا فانلة داخلية، علاقية، من القطن الأبيض، ويلف خصره بمعوز أسود. مروا من أمامه تباعًا حين عادوا إلىٰ الغرفة لارتداء ملابسهم، ولا تزال أجسادهم ورؤوسهم تقطر ماء.

قال لهم: سوف نتناول طعام الغداء قبل موعده.. ثم نتناول القات، حتىٰ إذا عاد التيار الكهربائي تقومون إلىٰ أعمالكم. لم يعلق العم ولا عبد العالم علىٰ كلامه. اكتفوا بالسكوت وارتداء ملابسهم. بادر صالحُ بالحديث قائلًا:

- لن يعود التيار الكهربائي إلا غدًا أو بعد غد... سنذهب لنتمشىٰ في ساحل البحر، وسنتناول الغداء والقات هناك، وسنعود ليلًا.

عرف محمد أنهم قد بيتوا هذا فيما بينهم فلم يشأ أن يعترض، أعطاهم مصروفهم وغادروا.

كان محمد يرىٰ أن هناك مصلحة شخصية لـه في مطالبة الجنوبيين بفصل مشروع الربط الكهربائي الذي تم بين محطتي الشمال والجنوب. فمحطة كهرباء الحسوة قادرة علىٰ سد احتياجات المحافظات الجنوبية من التيار الكهربائي، وبذلك لـن يتعطـل عملهـم في المنشار الـذي يقـع في عدن. استغرب في الوقت نفسه من عدم قيام الجنوبيين بالاعتداء علىٰ خطوط نقل الطاقة، كما يفعل البدو في محافظة مأرب، برمي سلسلة حديدية علىٰ الأسلاك الكهربائية تتسبب في حدوث ماس كهربائي يكفي لقطعها. في الماضي القريب حين كان ينقطع التيار الكهربائي في عدن والمناطق المجاورة كان يفر الناس من منازلهم إلىٰ الحدائق العامة والسواحل مغلوبين علىٰ أمرهم لا يشتكون إلا لله. لقد اختلف الوضع الآن كليةً، بعد العام ٢٠٠٧ م أصبح الصوت الجنوبي مرتفعًا. صارت المظاهرات والاحتجاجات والإضرابات العمالية لا تتوقف، ومع تردي الخدمات أصبح لـدىٰ قـادة الحـراك الجنـوبي مـبررات كثيـرة لتلـك الأعمال. لم يكن انقطاع التيار الكهربائي إلا واحدًا منها، فما أن تتوقف المراوح التي تدور في الأسقف حتىٰ تعج الشوارع بالمتظاهرين الذين يقومون بقطع الشوارع وحرق الإطارات، مطالبين بفصل مشروع الربط الكهربائي، وإعادة الشبكة الجنوبية إلىٰ سابق عهدها. تتحول المظاهرات أحيانًا إلىٰ أعمال شغب وعنف يسقط خلالها قتلىٰ وجرحىٰ،

ومع ذلك لم يقدم أحد علىٰ قطع التيار الذي يتم سحبه لتغذية محطة المخاء التي تمد المحافظات الشمالية بالتيار الكهربائي.

عاد العم محمد الجرادي وصالح في الساعة الواحدة ظهرًا، وحين سألهما محمد عن سبب عودتهما السريعة أخبراه أنهما لم يستطيعا اجتياز جولة السفينة في منطقة دار سعد بسبب الاحتجاجات. كان العم محمد الجرادي غاضبًا جدًا.

- عيال القحبة لم يسمحوا لأحد بالمرور.
- الحمد لله أنكما عدتما سالمين. قال له محمد وهو يحاول تهدئته.
- لن نسلم في المرة القادمة... لسنا نحن من قطع عنهم الكهرباء حتىٰ يعاملونا بتلك الطريقة.

وحين رأىٰ محمد أن عمه غاضب جدًا ترك الحديث معه وتوجه بالسؤال إلىٰ أخيه صالح.

- ما الذي حدث؟
- وصلنا إلىٰ جولة السفينة فوجدنا الطريق مقطوعًا بالإطارات المشتعلة والأحجار، فقررنا العودة. نزلنا من الباص المتوقف لنركب في باص آخر متجه إلىٰ هنا، لكننا تعرضنا لوابل من

الشتائم والألفاظ المهينة من قبل بعض المحتجين. قالوا إننا محتلون لأرضهم وإننا نقوم بنهب ثرواتهم. كان عمي يريد الاشتباك معهم لكني دفعته دفعًا لعدم الالتفات إليهم وإلا لكانوا سحقونا.

- أحسنت صنعًا، ولكن أين عبد العالم؟
- عبد العالم نزل من فوق الباص وأخبرني أنه سيمضي إلىٰ وجهته، وقال إنه لن يتناول القات إلا في الساحل. مشىٰ راجلًا ولم يلتفت إليه أحد.

❊ ❊ ❊

٧

استيقظ عبد الكريم باكرًا وأيقظ إخوته للعمل. وهم يتناولون الروتي البايت من ليلة البارحة، كان الدخان يتصاعد من علب الفول التي يستخدمونها أكوابًا للشاي. كانت هذه عادتهم منذ أوصتهم والدتهم بألا يبدأوا العمل إلا وقد "فرقوا ريقهم". يعملون حتىٰ الساعة الثامنة صباحًا، ثم يتناولون وجبة فطور رئيسية. ذهب محمد لتشغيل المولد الكهربائي حتىٰ يسخن قبل أن يقوموا بتشغيل المناشير. محرك أمريكي جبار له ستة سلندرات، يدير مولدًا كهربائيًا بطاقة مئة وتسعين كيلو واط. لا يدري محمد إذا كان هذا القياس لكمية الطاقة حقيقيًا أم متخيلًا. فعادة ما يطلق الناس مصطلحات علمية وهندسية لا دراية لهم بها. لكن هذا ما أخبرهم به الشخص الذي اشتروا منه هذا الماطور في بداية عام ٢٠١٦ م. أي بعد عام واحد من بداية الحرب، حين يأسوا من عودة الكهرباء العمومية، وصار من الضروري تشغيل المحل ليتمكنوا من كسب لقمة عيش تبقيهم علىٰ قيد الحياة. باعوا سيارتهم واستدانوا مبلغًا كبيرًا من المال لشراء ما اعتقدوه مخلصًا فكان مدمرًا.

عند وصولهم إلىٰ جوار المناشير أخبرهم محمد بخطة العمل التي يجب عليهم اتباعها حتىٰ يستفيدوا قدر الإمكان من دبات الديزل الأربع التي اشتروها من السوق السوداء:

- سيعمل صالح علىٰ المنشار الأيسر كالعادة وعبد الكريم سيزوده بالأحجار، وعبد الله سيعمل علىٰ المنشار الأيمن الذي كان يشتغل عليه أحمد، وأنا سأقوم بتزويده بالأحجار.
- لا، لا. من غير المعقول أن تشتغل أنت كعامل وأنا معلم. قالها عبد الله، وأضاف: أنت الأخ الكبير وأنت من يجب أن يعمل علىٰ المنشار.
- أريدك أن تتعلم يا حمار. قال محمد.
- لكن أنا خائف من عدم قدرتي علىٰ ضبط المقاسات. رد عبد الله.
- مثلما قلت لك سأقوم بالإشراف عليك. لا تخشَ شيئًا.

وسط ضحكات وابتسامات الإخوة الذين قدروا لمحمد حرصه علىٰ أن يتعلم عبد الله كيف يكون معلمًا بدلًا من بقائه عاملًا. ارتدىٰ عبد الله الدرع الواقي من الماء ودخل المنشار، قاموا بوضع حجر صغير ليبدأ بها عمله وأخذ محمد يشجعه ويثني عليه، ثم ظل يذرع أرضية المحل جيئةً وذهابًا، ويتفقد المدخل لعله يظفر بزبون، تارة يعود نحو المناشير لتفقد إخوته وتارة يتفقد أداء المولِّد.

في كل مرة يجد أن عبد الكريم قد قام بتقريب أحجار لكلا المعلمين صالح وعبد الله. لاحظ محمد أن عبد الكريم يصدر

توجيهات صائبة لعبد الله في كيفية قص الأحجار، كما لاحظ أنه قد وفر أمام عبد الله أحجارًا مناسبة؛ كونه معلمًا مبتدئًا، وهذا يدل علىٰ فهمه وذكائه.

كان الماطور يستهلك الديزل بسرعة أكثر من المعتاد. من المفترض أن تكفي الثمانون لترًا لتشغيله طوال النهار، لكن يبدو أن هذا لن يحدث. لم يقم محمد بتفريغها إلىٰ خزان الماطور حتىٰ لا تضيع في اتساعه، بل أبقاها في الحاويات التي تسع كل حاوية منها عشرين لترًا. قام بوضع أنبوبي الشفط والراجع في إحداها، وكان يقوم بتزويدها من الحاوية الأخرىٰ قبل أن تصل إلىٰ المنتصف وحين وجد أنهم قد استهلكوا ستين لترًا في الساعة العاشرة صباحًا طلب من إخوته التوقف، واستبقىٰ عشرين لترًا لشغل فترة بعد العصر.

أثناء المقيل طرح الموضوع علىٰ إخوته مستفسرًا منهم عن استهلاك الماطور للديزل فتباينت آراؤهم حول السبب لكنهم أكدوا أن استهلاكه اليومي دائمًا هو أربع حاويات. قال عبد الكريم إنه لاحظ أن هذه النوعية من الديزل خفيفة جدًا لذا يستهلكها الماطور بسرعة. وأضاف: إن رائحتها غير قوية وإذا لامست الجلد أو الثياب تزول بسرعة، علىٰ العكس من الديزل الأصلي الذي كانت له رائحة قوية ولا يزول بسهولة من علىٰ الجلد أو الثياب. لا بد أن هذا الديزل مستورد.

أما صالح فقال إن تعبئة السوق السوداء أقل بكثير من تعبئة المحطات الرسمية، فما نعتقد أنها عشرون لترًا ليست إلا خمسة عشر لترًا في أفضل الحالات.

بما أنه لا يوجد طلب فبإمكانكم أن تستريحوا. قال محمد. لكنه لاحظ رغبتهم في العمل فقام بتشغيل الماطور. وعندما جلس وحيدًا، إلا من ضمير لا يكف عن الوخز، شعر أنه بالفعل لم يعد قادرًا علىٰ القيام بأي عمل نافع وأخذ يفسر سبب عدم شغله علىٰ المنشار في الصباح، ربما لم يكن الدافع هو الحرص علىٰ تعليم عبد الله، فهل هو الخوف أم اليأس؟

لم تفعل شيئًا نافعًا علىٰ الإطلاق طوال حياتك. دوت هذه الصرخة في أذنه وهو يقلب هاتفه القديم وقد جلس القرفصاء ولم يعد متكئًا.

كان لحضور مجاهد ظفر دورٌ في إخراجه من حالة الشرود التي دخل فيها. دخل مجاهد بسيارته مسرعًا وصارخًا بكلمة "سلام" وحيدة حين قابل باب الغرفة. إنه أسلوبه الدائم حين يدخل إلىٰ محلات المناشير الصغيرة لكي يوهمهم أنه زبون جاء لشراء الأحجار، فيتبعونه مهرولين، لكن محمد عرف مزحة صديقه منذ زمن، بعد أن أوقعه في مقالب عدة.

يمتلك مجاهد وإخوته محلًا مماثلًا، لكن الفرق الوحيد والغريب نوعًا ما هو أن مجاهد، الذي لا يصغره إلا بسنوات قليلة، هو الأخ الأصغر بين إخوته أولاد صلاح ظفر، وهو من يدير المحل، ويتحمل المسؤولية. ومثل محمد، يتميز مجاهد بشجاعة وقوة شخصية تصل لحد الوقاحة. كما أنه لا يبدو عليه القلق أو الارتباك مهما كانت ظروفه المادية صعبة. ما إن دخل الغرفة حتىٰ جلس أمام الباب، ورفض الجلوس مكان محمد الذي قام منه. وحين طلب منه محمد أن يضع البطانية تحته رفض بنزق، وقال:

- لم تعد هناك من فائدة، أنا لم آتِ لأجلس مرتاحًا... لن نصبر علىٰ هذا الوضع. يجب أن نجد حلًا. لن نغير العالم. ماذا نستطيع أن نفعل؟ الحل ليس بأيدينا.

معتقدًا أن صديقه يتحدث عن الوضع العام للبلاد أخذ محمد يُنظر ويتفلسف حتىٰ صعقه مجاهد بقوله:

- اليوم عراك وغدًا اقتتال.
- ما الذي حدث؟ عن أي شيء تتحدث؟ بذهول سأله محمد حين رأىٰ الصرامة والجدة في وجه مجاهد.
- أصحابنا مُلَّاك المناشير الأُتوماتيكية لن يتركوا لنا حالنا، لا يريدون أن نعيش.

- من غير المعقول أن يلتفت أصحاب الشركات إلىٰ منافستنا يا رجل.
- للأسف هذا ما يحدث.

بعد طرد المغتربين اليمنيين من السعودية علىٰ أثر موقف حكومة اليمن المؤيد للعراق في غزو الكويت، وجد أبناء قرية البردون أنفسهم دون عمل، وفجأة ودون تفكير هرع كثيرون لإنشاء محلات مناشير الأحجار، ليس تلبية لمتطلبات سوق العمل، بل لأن أحد أبناء القرية قد افتتح محلًا. وخلال عام واحد استطاع مضاعفة دخله وتحسين مستوىٰ معيشته. فسارع كل مستطيع إلىٰ إنشاء محل خاص به ومن لم يستطع قام بالشراكة مع آخرين، والذين لم يمتلكوا محلات، اشتغلوا مع من يمتلك. انتشر أبناء قرية البردون ونشروا معهم هذه المهنة في كل أرجاء اليمن شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا. تقلبت الأحوال والأوضاع بمحلات مناشير الأحجار وأصحابها، منهم من لم يستطع البقاء فيها إلا لسنوات قليلة دون فائدة، ومنهم من تطور تطورًا كبيرًا إلىٰ أن أصبح يمتلك شركة متكاملة للأحجار والرخام، ومنهم من ظل يراوح مكانه.

بالرغم من كونهم ينتمون إلىٰ قبائل متعددة في القرية، واختلافهم الذي يصل إلىٰ حد الاحتراب، فقد أظهروا صورة حضارية بنبذهم خلافات القرية وراء ظهورهم. يتعاون جميع ملاك المناشير من أبناء

القرية فيما بينهم حين تحدث مشكلة على أحد منهم. يصطفون فريقًا واحدًا ويتحملون كل التبعات والتكاليف المادية والمعنوية ويربطهم رابط قوي مصدره الشعور بالغربة وعدم الأمان، خاصة في ظل هذه الأوضاع التي انعدم فيها وجود الدولة وحلت الحرب. يقومون بجمع المال اللازم لأية قضية من خلال ما يسمى "الغرم" ويدفع أصحاب المحلات الكبيرة، الذين يملكون المناشير الأتوماتيكية، النسبة الأكبر في أي غرم. إلى جانب إسهاماتهم في الأعمال الخيرية ودعم مشاريع القرية من أموالهم التي ينفقونها سرًا وفي أكثر الأحيان علانية.

عرف محمد من صديقه مجاهد أن أصحاب المحلات الكبيرة ينافسونهم على الأحجار القادمة من منطقة الصلو، ولا يكتفون بهذا بل يدفعون سعرًا أكثر من اللازم مما تسبب في ارتفاع أسعار هذا النوع من الأحجار.

- لم أتوقع أن يحصل هذا يومًا، لقد اعتدنا منهم دعمنا وعدم التفاتهم إلى الصغائر.
- لقد حصل. قالها مجاهد بحسرة.. وأضاف: لم يكتفوا بالرخام المأربي والحجر الأرحبي.

في المساء وفي ساعة متأخرة أتى الخطاط أحمد صالح للكتابة على الأحجار بحسب طلبات الزبائن. كان الإخوة قد ناموا عدا محمد، الذي

بقي ينتظره. الكتابة على الأحجار تتطلب ذائقة فنية عالية، وتركيزًا شديدًا، وجهدًا وصبرًا في الوقت نفسه، وهذا ما يتمتع به أحمد صالح. يوجد خطاطون آخرون من أبناء القرية إلا أن أحمد صالح أفضلهم. تنفذ الأحجار التي يقوم بخطها بسرعة كبيرة من واجهات المحلات، لذا يزداد الطلب على عمله من قبل أصحاب المناشير، مما اضطره لتوزيع أوقات عمله فيما بينهم.

يبدو في الثلاثين من عمره. طويل القامة، إلا أن ظهره قد بدأ بالانحناء. ربما من كثرة انكبابه على الأحجار أثناء الكتابة عليها. يحمل في يده اليمنى كيس دعاية كبيرًا يحوي علب الألوان والأقلام الخاصة بالكتابة، وفرش الرسم التي يلون بها الخط بعد أن يقوم بنحته على الحجر، ويحمل على كتفه جلخًا صغيرًا يمسكه بيده اليسرى وكأنه يحمل سلاحًا. وهو بالفعل يعد كذلك، فبهذا الجلخ الصغير (آلة نحت الأحجار) يقاتل الخطاط أحمد صالح في معركة الحياة.

- مساء الخير يا عزي. يقولها مادًا صوته ومبتسمًا وهو لايزال على بعد خطواتٍ من محمد.
- يا مساء الخير والعافية. أهلًا وسهلًا.
- آسف جدا تأخرت عليك، انشغلت في المناشير الأخرى... وأخذ يشرح ويبرر أسباب تأخره.

- لا عليك يا رجل. أعرف ظروف عملك، ثم أن الأحجار التي نريد كتابتها هي للعرض ولا يوجد طلب مستعجل عليها.
- ما هي العبارات التي تريد أن أكتبها.
- هذه.

قدم له محمد قصاصة تحتوي علىٰ العبارات التي يطلبها الزبائن بكثرة هذه الأيام. كانت أكثر العبارات هي التي يعتقد من يشتريها أنها تصرف عنهم وعن بيوتهم العين والحسد. تسببت الحرب في تدهور الوضع الاقتصادي للبلاد وتضرر الكثير من الناس فلا شك أن من يستطيعون بناء الفلل والعمارات في هذه الأيام سيكونون محط أنظار العيون التي قد تصيبهم بالحسد، لذا يجب عليهم الاحتياط، بوضع عبارات مثل: عين الحسود تبلىٰ بالعمىٰ، ويا داخل الدار صلي علىٰ المختار، وما شاء الله تبارك الله.

أما أولئك الذين تدور الشبهات حول مصدر دخلهم، ويتساءل الناس كيف استطاعوا بناء هذه القصور، فإنهم يضعون عبارة "هذا من فضل ربي" علىٰ واجهات بيوتهم، ليخرسوا بها الألسن، وللتأكيد أن ليس لأحد فضل ولا منة، وأن الأموال التي بنوا بها بيوتهم هي فضل من الله!

بما أنه خطاط متجول بين المحلات يمتلك أحمد صالح معلومات كثيرة عنها وعن أصحابها. تحدث محمد معه في أمور كثيرة، وحين حدثه

عن الأزمة القائمة بين أصحاب المحلات الصغيرة والمحلات الكبيرة من أبناء القرية تعاطف الخطاط مع أصحاب المحلات الصغيرة وهذا ما كان يتوقعه محمد من صديقه الذي يكن كل واحد منهما احترامًا للآخر. حين سأله محمد عن السبب من وجهة نظره قال:

- الطمع والحسد... بعض أصحاب المحلات الكبيرة يدفعهم الطمع ولا يقتنعون مهما بلغ دخلهم، وبعض أصحاب المحلات الصغيرة لديهم حسد. تحدث وهو يقوم بوضع الخطوط الأولية علىٰ حجر أمامه ثم أطفأ الكشاف المثبت بخيط مطاطي حول رأسه. رفع رأسه والتفت نحو محمد الذي كان يصغي إليه باهتمام، وقال: اعذرني.. أنا أقول البعض.
- أنت تقول الحقيقة.
- هل تعرف من الذي تسبب بهذه الأزمة؟
- لا.
- مشرفو المحلات الكبيرة.
- لكن يستطيع أرباب عملهم منعهم.
- قد تم منعهم. سمعت الحاج أحمد أبو رفاد وهو يتصل بالمشرفين العاملين لديه ويوبخهم توبيخًا شديدًا. وسمعته وهو يطلب أن يجتمع كل أصحاب المحلات لحل هذه المشكلة.

- كثر الله خيره، هذا شيء متوقع من شخص مثله.

وبنبرة هادئة وهو ينقر بقلمه على الحجر قال أحمد صالح لمحمد:

- يوجد شخص آخر تسبب في هذه الأزمة من أصحاب المحلات الكبيرة. هل أخبرك من هو؟

سأله محمد وعلامات التعجب ظاهرة على وجهه:

- من هو؟!

- صِهرك حمد بصيلة.

بلهجة يخالطها الضحك رد عليه محمد:

- يا رجل، بصيلة يعتبر من أصحاب المحلات الصغيرة، وليس لديه الإمكانيات الكافية للمنافسة.

- لديه إمكانيات مناسبة للفوضى.

لدى بصيلة منشار أوتوماتيكي لكن ليس لديه المعدات الأخرى حتى يمكن وصف منشأته بأنها كبيرة؛ فهو يُعد، وكثيرون مثله من أبناء القرية، في وسط السلم، ومن هو في مثل وضعه يُعد مؤذيًا للمحلات الصغيرة ومزعجًا للمحلات الكبيرة.

كان يعمل في بيع القات في القرية بمعية جده لأمه الذي احتضنه بعد وفاة والدته، واعتبره واحدًا من أبنائه. حتى أن الناس نسوا لقب أسرة

والده "بيت حصن" ونسبوه إلىٰ لقب أخواله "بيت بصيلة". استمر في العمل مع أخواله حتىٰ أصبح لديهم محل ضخم لتجارة المواد الغذائية في القرية، إلىٰ جانب عملهم في بيع القات، وفي إحدىٰ الليالي لاحظ جده كثرة اجتماعاته مع أخواله ومشاوراتهم دون إشراكه، فسألهم:

- فيما تتناقشون؟

أفضوا إليه بالسر:

- ننوي عمل منشار أحجار مثل بقية أبناء القرية.

حذرهم من الإقدام علىٰ هذه الخطوة، ونصحهم بالمحافظة علىٰ تجارتهم التي تدر عليهم دخلًا جيدًا:

- كل مناشير أصحاب القرية يأتي دخلها إلىٰ أيديكم فلماذا تتعبون أنفسكم؟!

وحين لم يستمعوا إلىٰ توجيهاته الحكيمة لم يوفقوا. يتداول الناس هذه الحكاية حين يقوم أحمد ببعض المشاغبات في سوق الأحجار.

❊ ❊ ❊

٨

لم يكن محمد نابغة. كان يجتاز الامتحانات المدرسية بدرجات جيدة، وما كان يميزه أنه يفهم أكثر مما يحفظ. هكذا عبر الأستاذ محمد غليس عن مستوىٰ محمد الدراسي بكل صراحة وهو يستذكر مع مجموعة من طلابه القدامىٰ، ومحمد واحد منهم، أيام دراستهم علىٰ يديه قبل سنوات مضت، في أحد المقايل. عبر عن استيائه منهم لمناداتهم له باسمه المجرد، واحترامه لمحمد لأنه الوحيد الذي لا يزال يسبق اسمه بصفة "أستاذ".

في القرية مدرسة كبيرة بها اثنا عشر فصلًا دراسيًا حديثًا ولها نوافذ واسعة، وجميع الفصول مؤثثة بالكراسي الخشبية، وعلىٰ جدرانها صور كبيرة تتطابق مع ما هو موجود في المنهج المدرسي. ليست تلك الصور هي الوسائل التعليمية الوحيدة، فقد كانت المدرسة تمتلك معملًا للتجارب فيه الكثير من الأدوات والمحاليل. كان محمد وزملاؤه ينظرون إليها بدهشة، وهم يتلصصون من النوافذ علىٰ الطلاب الأكبر منهم سنًا، ومدرسي العلوم وهم يشرحون لهم ويجرون التجارب الكيميائية داخل المعمل.

لم يكن مسموحًا للطلاب الصغار الدخول، فلما كان يخرج هؤلاء الصغار مبكرًا من المدرسة فإنهم لا ينصرفون إلىٰ بيوتهم بل يمكثون

للعب والمرح في ساحة المدرسة التي تقع بين المعمل وسكن المدرسين. كانت الدراسة في مدرسة القرية منتظمة ومكتملة الصفوف الأساسية والثانوية. كانت لها إدارة كفؤة، وتمتلك طاقمًا من المدرسين من أبناء القرية، الذين تلقوا تعليمهم على أيدي مدرسين مصريين وسودانيين، ليحلوا محلهم فيما بعد، فيما عرف باليمننة والإحلال. لا أحد يعرف لماذا سميت هذه المدرسة باسم "مدرسة الرافدين". البعض يقولون إنها هدية من حكومة العراق جاءت على أثر قصيدة ذائعة الصيت للشاعر عبد الله البردوني الذي ولد في هذه القرية وألقاها في مهرجان أبو تمام الذي كان يقام في الموصل.

كانت إدارة المدرسة حازمة في نجاح ورسوب الطلاب، رغم أنها في قرية بعيدة عن الرقابة. لم تكن تحابي أحدًا مهما كانت مكانته الأسرية. أما محمد فلم يرسب في أية سنة دراسية.

تسبب أحد محلات مناشير الأحجار في إغلاق مدرسة القرية النموذجية، حين أشعل حربًا شعواء بين أكبر قبيلتين في القرية خلفت عشرات القتلى والجرحى.

كان قد تشارك شخصان من أفراد القبيلتين في ذلك المنشار الملعون، ولأن شر البلية ما يضحك فقد أطلقا على محلهما اسم مصنع الأصدقاء. لا أحد يعرف كم المدة التي جثمت فيها الحرب على

صدورهم، لكنها انتهت بهم إلىٰ العداوة الشديدة، علىٰ كل المستويات. لم يعد الوضع بعد الحرب إلىٰ ما كان عليه قبل الحرب. تشظت إدارة المدرسة، وتشتت المدرسون، سرت العداوة بين الطلاب الزملاء في الصف الدراسي الواحد، لم تفلح الإدارة المحايدة والمعلمون الذين أرسلهم مكتب التربية والتعليم من خارج القرية في منع الاشتباكات بين الطلاب، فكانوا يلجؤون إلىٰ حلول لا يقوم بها إلا العاجز. لأن الطلاب الكبار هم من كان يبدأ الشجار. بدأت الادارة في التخلص منهم بشكل تنازلي: بدءًا من الصف الثالث الثانوي حتىٰ الصف السادس الابتدائي. وحين رأىٰ البعض أن لا جدوىٰ من استمرار العملية التعليمية علىٰ هذا النحو، اقترحوا ما هو مخجل أكثر: أُغلقت المدرسة، وتوزَّع الطلاب علىٰ ثلاث مدارس، مدرستان للقبيلتين المتحاربتين ومدرسة لمن لم يشتركوا في الحرب، وقام المدرسون من كل فريق بتدريس أبنائهم.

وهو في العاشرة من عمره، لم يكن محمد يعرف سر اهتمام المدرسين به في تلك المدرسة المستقلة المخجلة التي أصبحت مدرسة أبناء القبيلة بعد إغلاق المدرسة الأم. كانت الفصول عبارة عن حظائر للحيوانات، وبيوت غير مسقوفة وفي أحسن الأحوال دكاكين قديمة ليست فيها أية فتحات للإضاءة والتهوية، ولم تكن المدرستان الأُخريان أفضل حالًا.

بتشجيع من مدير المدرسة أصبح النشاط الثقافي الوحيد لتلك المدرسة البائسة والمتمثل في الإذاعة المدرسية هو الشغل الشاغل لمحمد. كان يقدمها ويضيف إليها ما غفل عنه المشاركون.

عندما قُسِّمت المدرسة، كان محمد وزملاؤه في الصف السادس، ولم تكن المرة الأولىٰ التي يصطحبه والده معه لقضاء الإجازة الصيفية حيث يعمل؛ فقد اعتاد علىٰ السفر مع أبيه في معظم الإجازات.

في إحدىٰ المرات جاء مدير المدرسة المستقلة إلىٰ عدن حيث يقع محل والده، وحين سأله محمد عن سبب مجيئه رد قائلًا:

- جئت كي أعيدك معي إلىٰ المدرسة.

ولكن لماذا يتجشم الأستاذ جبر علي عناء السفر لكي يعيدني إلىٰ المدرسة؟! تساءل محمد في نفسه. كنت سأعود مع أي شخص آخر إذا جاء موعد الدراسة ولم يسافر والدي إلىٰ القرية. لكن حيرته تبددت حين رأىٰ والده يسلم للمدير مبلغًا ماليًا لشراء حاجيات لمدرسة القبيلة، مثل الطرابيل التي تستخدم فرشًا أو أغطية، وألواح خشبية تستخدم سبورات للكتابة. اتضح له أن والده قد أصبح الداعم الرئيسي للمدرسة.

❊ ❊ ❊

٩

تلقىٰ محمد اتصالات عديدة تخبره باجتماع أصحاب المناشير. اجتماع دعا إليه أبو رفاد. وكما توقع وجد أن أصحاب المحلات الصغيرة قد أتوا أولًا فوجدها فرصة مناسبة لتشكيل رأي موحد فيما بينهم. كان هناك تيار متعصب وجريء يقوده مجاهد. يرىٰ ضرورة منعهم بأية طريقة، ولكنهم لا يعرفون ما هي هذه الطريقة.

وتيار آخر محبط ومحطم يرىٰ أن نطلب منهم ترك شراء الأحجار ذات القَطع الصغير وأن يكتفوا بشراء الكتل الكبيرة، أو حتىٰ أن يتركوا شراء الأحجار القادمة من منطقة الصِّلو كليًا. لكن محمد رفض هذا الرأي الأخير ورأىٰ فيه إهانة للكرامة، ومن الأفضل لهم عدم التحدث به وعدم إذلال أنفسهم.

بسيارت حديثة، وملابس فاخرة تغطي أجسادًا متخمة، أتىٰ رجال الأعمال وكبار ملاك مناشير الأحجار والرخام إلىٰ الاجتماع. صحيح أنهم لم يتوقفوا عن التمازح مع بعض أصحاب المحلات الصغيرة طوال الوقت قبل التحدث عما جاؤوا من أجله، إلا أن أغلب الصغار ومنهم محمد ظلوا صامتين طوال الوقت.

كان محمد يفكر كيف يمكن جسر الهوة بينه وبين هؤلاء؟ وهل يمكنه اللحاق بهم والوصول إلىٰ ما وصلوا إليه؟

ما أثار إعجاب محمد أن هؤلاء قد أثْروا بطريقة شريفة ونظيفة، والكل يعرف ذلك. جميعهم اكتسبوا أموالهم من كد يمينهم وعرق جبينهم كما يقال. وما يبعث علىٰ الأمل في نفسه أنهم جميعًا بدأوا حياتهم بمنشآت صغيرة مثله.

بعد صلاة العصر افتتح الحاج أحمد أبو رفاد الحديث وأكد رفضه للتدافع في الشراء أو المزايدة في الأسعار، وطلب من الجميع طرح وجهات نظرهم في كيفية إيجاد حل.

كانت سوق الأحجار والرخام قبل الحرب تخضع لقانون العرض والطلب، مثل أية سلعة: إن زاد الطلب ارتفعت الأسعار، وإن قل الطلب انخفضت. ولكن بسبب ظروف الحرب وأزمات الوقود أصبحت الأحجار غير متوفرة في كل وقت كما كان في الماضي. فما أن توجد فرصة لخروجها من الجبل حتىٰ يتسابق أصحاب المناشير لشرائها. وفي هذه الحالة يسعىٰ من يمتلكون أكبر قدر من المال إلىٰ شراء أكبر كمية من الأحجار ليتسنىٰ لهم بيعها فيما بعد بسعر مضاعف.

في الاجتماع اقترح البعض أن توجد فرزة لقلابات الأحجار تكون سوقًا تصل إليها جميع القلابات، كل من يريد الشراء يذهب إلىٰ تلك الفرزة. بدت فكرة جيدة لكن هذا لن يمنع المزايدة في الأسعار.

في الاجتماع لاحظ محمد أن هناك شخصًا من أصحاب المحلات الكبيرة يتكلم بغرور كبير واستعلاء، ومن المؤسف أن بعض أصحاب محلات المناشير الصغيرة طرح تلك الفكرة المهينة التي حذر منها محمد، فصرخ فيهم ذلك المتعجرف: لماذا أنتم حُسَّاد؟ فلاذوا بالصمت مقهورين.

لم يتحدث معه محمد علىٰ الإطلاق لا في هذا الاجتماع ولا في أي مكان يقابله فيه. وليست هذه هي المرة الأولىٰ التي يرىٰ فيها قلة ذوق هذا الرجل. يتذكر محمد المرة الوحيدة التي أتىٰ فيها هذا المخلوق إلىٰ محلهم الذي كان في عدن. أتىٰ للسياحة أثناء بطولة خليجي عشرين. أخبرهم أنه لم يجد فندقًا فارغًا لتناول القات فيه ومشاهدة مباراة العراق والإمارات عبر التلفزيون بعد أن عجز عن دخول الملعب. وكأنه يقول: وإلا ما كنت أتيت إلىٰ هنا. ما أثار تقزز محمد منه أكثر أنه قام بتقليم أظافره داخل الغرفة، بمقص تقليم أظافر معلق في سلسلة المفاتيح.

أشار عليهم أبو رفاد برأي أن يتم التوزيع العادل للأحجار بينهم بالتساوي صغارًا وكبارًا، فور خروج القلابات من الجبل، بحيث يأخذ كل محل حملة واحدة من قلاب واحد فقط من القلابات التي تجلب الأحجار، وأن يبدأ التوزيع من عند أول محل يقع في مدخل القلابات، ثم الذي يليه في خط الحوبان، ثم المحلات المتواجدة في مفرق ماوية

وحارة الدقدوق التي خلفها، ثم محلات مدينة القاعدة القريبة ومحلات شارع الستين، ثم البدء من جديد، ورسم لهم خط سير التوزيع الذي فهمه الجميع. أخذ كل واحد منهم يقول لجاره: أنا دوري سيكون بعد دورك. وأظهر الجميع احترامًا كبيرًا لأبو رفاد وهو يضرب أرضية المجلس الذي هم مجتمعون فيه داخل محله بقنينة المياه بشدة قائلًا:

- وهذا سيكون آخر محل في قائمة التوزيع.

وقع كل واحد منهم مقابل اسمه. كان من ضمن الشروط أن يتحمل من خالف هذا النظام غرامة عبارة عن ثور يقوم بذبحه فيما يعرف في الأعراف القبلية بالهجر. شكل أبو رفاد لجنة من خمسة أشخاص راعىٰ فيها تمثيل الجميع ولم يشرك نفسه فيها. رفض محمد الاشتراك في تلك اللجنة رغم تزكيته من بعض أصحاب المحلات الصغيرة، لكنه اعتذر وأخبرهم بأنه مشغول. الحقيقة أنه رأىٰ ألا يزاحم ابن عمه حسين عامر صاحب أحد المحلات الكبيرة وعضو اللجنة، وأنه يكفي شخص واحد منهما وإعطاء الفرصة للآخرين. أغلب الحاضرين اعتقدوا أن اللجنة تمثل أصحاب المحلات تمثيلًا طبقيًا، لكن محمد استشف أنها تمثلهم قبليًا بحيث يوجد شخصان من كل قبيلة من القبيلتين الرئيسيتين في القرية والشخص الخامس من قبيلة أخرىٰ في القرية نفسها، وحسنًا فعل أبو

رفاد؛ فبهذه الطريقة نضمن حيادية اللجنة ونزاهتها. هكذا فكر محمد وهو يوقع علىٰ الورقة مقابل اسمه.

- لا شك أن أبو رفاد قد تشاور مع الكبار ليلًا، فهو رجل حكيم ويحرص علىٰ إنجاز أي موقف بأفضل النتائج.

قالها محمد لمجاهد وهو يوصله بسيارته إلىٰ باب المحل، لكن مجاهد يبدو كمن فقد رغبته في الكلام معه. رمىٰ بعبارة وحيدة في وجه صديقه قبل أن يترجل من السيارة:

- أكلونا وسلامتك.

ثمة محلات يمتلكها أبناء القرية في داخل مدينة تعز، حيث تسيطر الحكومة الشرعية. لكن أصحاب تلك المحلات غير ملزمين بهذا الاتفاق؛ بحكم الأمر الواقع، فالقلابات التي تحمل الأحجار لا تستطيع الدخول إلىٰ مدينة تعز بسبب سد الشوارع بالحواجز الأمنية التي قسمت المدينة بعد دخول الحوثيين إليها، فأصبح جزء منها تحت سيطرة الحوثيين، والجزء الآخر تحت سيطرة حكومة الرئيس هادي.

مثل معظم السلع التي يقوم الناس بنقلها بشاحنات ذات دفع رباعي وعبر طرق بعيدة وملتوية، يقوم بعض أبناء القرية- بالرغم من الأخطار المحدقة بهم- بإدخال الأحجار جاهزة. كانوا يشترونها من المحلات في

الحوبان. وبالرغم من تكلفتها المالية المرتفعة بعد وصولها إلىٰ بير باشا، الحي الذي تتواجد فيه محلات أبناء القرية داخل مدينة تعز، إلا أن هناك طلبًا كبيرًا ومتزايدًا عليها، مما دفعهم إلىٰ التنافس، والاختلاف فيما بينهم مراتٍ عديدة. وبسبب الهتافات المناهضة لسكان هضبة شمال اليمن في بداية الحرب كان قد فر جميع أبناء القرية من مدينة تعز حتىٰ لا يعتقد الموالون للرئيس هادي أنهم عسكر أو حوثيون.

❊ ❊ ❊

١٠

قبل الغروب عـاد محمد مـن اجتمـاع أصحاب محلات المناشير. وجـد إخوتـه ينتظرونـه بفضـول. بـادر صـالح إلـىٰ سـؤاله عمـا دار في الاجتماع، فأخبرهم باقتضاب، وطلب من عبد الله التوقف عن البحث عـن الأحجـار. أخبره أن يراقب فقط متىٰ سيصل دورهـم؟ وهل تسير الأمور علىٰ ما تم الاتفاق عليه؟

علَّق عبد الكريم ساخرًا:

- في كل مرة يعقدون اتفاقًا ثم لا يطبقون منه شيئًا.

رد عليه محمد:

- هـذه المـرة الجميـع متضـرر وقـد حضـر الجميـع ووافقـوا علـىٰ الاتفاق وعلىٰ غرامة المخالفة وبصموا عليه.

مضىٰ إلىٰ غرفة المكتب، وفتح الـدرج الحديـدي الـذي يخبـئ فيـه هاتفـه القـديم. أصبح شـديد الحـرص عليـه، ويـرىٰ فيـه صـندوقًا أسـودَ يحوي الكثير من المعلومات التي يحب العودة إليها لمعرفة الأسباب التي جعلته متخلفًا عن الركب، وكيف ولماذا لم يصبح بعد صاحب منشأة كبيرة؟ ربما كان هذا الهاتف هو السبب! هل شغله عن التركيز في

عمله بالفعل كما كان يصرخ إخوته، فيبلغون والده في كل مرة يختلفون معه، الذي بدوره كان يحذره من تضييع وقته مع ما يطلق عليه اسم "الفيسبوك". لن يجيب عن هذه الأسئلة إلا عبد العالم. حين وجد اسمه في قائمة الأسماء قام بنقله إلىٰ هاتفه الحديث. اتصل به فسمع العبارة الآلية: "قد يكون الجهاز مغلقًا أو خارج نطاق التغطية."

- هل لديك واتساب؟
- لا.
- إذن كيف نستطيع أن نرسل لك تشكيلة النوافذ والبوابات التي نريدها؟

هكذا خاطبه أحد الزبائن في عدن قبل أكثر من عشر سنوات.

- لدينا كتالوج فيه عشرات الصور. بإمكانك أن تأتي إلىٰ المحل وتختار أي شكل تريده، وسنقوم بعمله.

كان محمد يحتفظ بكمية كبيرة من الصور الفوتوغرافية لعمائر وفُلل وأسواق تجارية في دفتر صور ضخم. قام بطباعتها من دفتر آخر يمتلكه أحد أبناء القرية، وهذا بدوره قام بطباعتها من شخص غيره. لا يعرف محمد من الذي قام ببناء تلك المباني الضخمة، ولا من الذي قص لهم الأحجار، لكنه قام بالفعل بإنتاج طلبات قليلة اختارها بعض الزبائن

من بين تلك الصور. لكن ومع مرور الوقت اتضح أن الاحتفاظ بالصور بتلك الطريقة لم يعد مجديًا. فمع الثورة المعلوماتية انتقلت الأعمال إلىٰ الفضاء الرقمي.

ذُهل محمد حين وضح له الزبون أكثر بقوله: أنا هنا مجرد وكيل أقوم ببناء عمارات للمغتربين في أمريكا ودول الخليج. وهذه العمارة لمغترب في أمريكا وقد أرسل لي الصور التي أُرسلت إليه من تركيا ويريد تطبيقها علىٰ واجهة عمارته. ونكزه الزبون مازحًا:

- لماذا أنت متخلف؟ أم أنه الطمع.. اشترينا منكم بمليون ريال أحجارًا.. أَخرِج منها مبلغًا بسيطًا لشراء هاتف حديث بدلًا من ادخارها يا رجل. وأضاف: الواتساب سيجعلك تكسب أعمالًا جديدة وتشتغل أكثر.

كان أول هاتف يمتلكه محمد هو هاتف نوكيا. لا يعرف اسم طرازه إلا أنه معروف شعبيًا باسم "الرنان"، وقد اشتراه له والده بعد نجاحه في الصف الثاني الثانوي، وهو أول هدية يتلقاها في حياته، بالرغم من أن نجاحه لم يكن باهرًا، وظروف والده الاقتصادية كانت صعبة للغاية. فرح محمد بتلك الهدية فرحًا شديدًا.

لدي هاتف "موتورولا" خفيف الوزن أقوم بفتحه وطيه طوال الوقت. ما من داعٍ لشراء هاتف يعمل باللمس. قال لنفسه، وأضاف: هذا

الزبون مخرف! كيف ستزيد أرباحي إذا كان لدي واتساب! ثم إنه لا يعرف ظروفنا الاقتصادية. فعلًا الأغنياء أغبياء، يعتقدون أننا متخلفون إذا لم يكن لدينا هاتف حديث. يرون الحداثة في المظاهر. هكذا ظل يبرر لنفسه في كل مرة تراوده فكرة شراء هاتف حديث.

ليس التخلف هو ما منع محمد من شراء هاتف حديث في تلك الأيام، ولا قلة الإمكانيات أو ضعف الميزانية، وربما ليس طمعًا في المال، وإن بدا حريصًا عليه، بل سعيًا وراء رهان النجاح الذي راهن عليه، ومحاولة منه للوفاء بعهود قطعها علىٰ نفسه منذ أن قرر إعادة افتتاح هذا المحل بعد تصفيته وإغلاقه علىٰ أثر نكبة والده الاقتصادية التي لاتزال تلوكها الألسن ويسعىٰ محمد إلىٰ أن يثبت نقاء صفحة والده- أخلاقيًا علىٰ الأقل- وتبرئته مما نسب إليه وما ينسب لكل من افتقر في هذه البلاد.

خوفًا من أن ينزلق بهم الهاتف الذي يعمل باللمس رفض محمد أن يشتري أيٌ من أخويه أحمد وصالح هذا النوع من الهواتف، خاصة في ظل ما يشاع من أنها تستدرج الشباب إلىٰ دروب خطيرة من الانحراف السلوكي والأخلاقي. كان محمد يخوض حربًا قيمية، ويكافح من أجل الحفاظ علىٰ سمعة طيبة له ولإخوته، في ظل مغرياتٍ شتىٰ.

في بداية التسعينيات بدأ الحاج عبده في الشراكة مع اثنين من أبناء قريته بعمل منشار للأحجار في مدينة تعز. وبعد سنة واحدة قاموا بافتتاح فرع جديد في مدينة عدن. بعد ذلك فضوا الشراكة بينهم بالمعروف، وكان فرع عدن من نصيب الحاج عبده، الذي حالفه الحظ، فاشتغل محله بشكل جيد، حتىٰ أصبح مقصدًا لأناس كثيرين رغبوا في شراكته بعد أن لمسوا نجاحه. كان أسلوبه البسيط في الإدارة الذي يعتمد علىٰ المصداقية في التعامل والثقة في نفسه وفي الآخرين هو ما عزز من شهرته، كما كان يتميز بسرعة البديهة خاصة فيما يتعلق بالمسائل الحسابية؛ فهو يستطيع الإجابة عن أية عملية حسابية خلال ثانيتين. إلا أن الارتجال كان السمة الرئيسية في شخصيته. كان يقدم علىٰ أي مشروع يخطر في رأسه بدون تخطيط مسبق أو تفكير في العواقب، وهذا ما دفع شريكيه الأولين إلىٰ فض الشراكة معه. لكنهما كانا مخطئين علىٰ ما يبدو، فقد امتلك مجموعة من محلات المناشير تجاوز عددها خمسة محلات. وكان يرفض عروض شراكة متكافئة عرضها عليه أشخاص رأوا في استثمار أموالهم لديه نجاحًا مضمونًا.

بضمير يساري كان يسعىٰ إلىٰ دعم وتشجيع الفئات الأضعف، والأشد فقرًا من أقاربه وأصهاره، الذين كانوا يعملون لديه، كان يقوم بتجهيز المحل ثم يدفع بشخصين منهم إلىٰ العمل في المحل الجديد

ويقوم بشراكتهم فيه بنسبة خمسين في المائة على أن يسددوا له تكاليف تلك الشراكة الغبية من دخل المحل، الذي لم يدفعوا من تكاليفه فلسًا واحدًا.

- العمل يتطلب أن يكون في رقم الهاتف المحمول الخاص بالمحل واتساب، والواتساب يتطلب تلفونًا يعمل باللمس. ما رأيك هل نشتري واحدًا؟ لن أُقدم على أي شي دون استشارتك.

بعبارات بروتوكولية يتقدمها كيس دعائي لواحدة من أكبر شركات الصرافة والتحويلات المالية تحدث محمد إلى والده صبيحة عودته من عدن في إحدى المرات لقضاء إجازة قصيرة. "وهذا ما استطعنا جمعه في هذه الفترة." أخذ الحاج عبده الكيس وألقى إليه نظرة سريعة، وعلق قائلًا:

- بارك لكم ربي ورزقكم من سعة فضله. وبدا كأنه يريد إعادة كيس النقود إلى محمد قائلًا:
- ناول أمك تخبئه لزواج أحمد وصالح.
- عادي ناولها أنت. ماذا بشأن التلفون؟
- أنا راكن على الله ثم عليك، اعمل ما تراه مناسبًا.

دائمًا ما يعطيه والده الصلاحيات الكاملة، ويذكره أن عليه تحمل تبعات اختياره بنفسه.

إلىٰ حدٍ ما يشبه النظام في هذه الأسرة أنظمة الحكم في الممالك الأوروبية: الحاج عبده هنا يمثل الملك، في حين يمثل محمد رئيس الوزراء.

بعد عودته إلىٰ عدن أخبر محمد إخوته أنه سيشتري هاتفًا يعمل باللمس.

قال أحمد:

- لماذا أنت فقط سيكون لديك تلفون لمس؟
- الهاتف للمحل وليس لي وحدي، ثم إن أبي من قال ذلك.

قال صالح مؤيدًا كلام محمد:

- لا تلتفت إلىٰ كلامه، طالما أن أبي قد سمح لك فماذا تنتظر؟

كان محمد قد جمع قدرًا كافيًا من المعلومات عن الهواتف التي تعمل باللمس، حين كان يذهب إلىٰ منطقة الشيخ عثمان، التي تتواجد فيها أكثر محلات بيع الهواتف في عدن، لكنه قام باصطحاب عبد العالم معه حين ذهب ليشتري هاتفه؛ فقد كان لدىٰ عبد العالم واحد منها، ويعتقد محمد أنه أكثر منه خبرة. أيضًا قام عبد العالم بضبط الواتساب،

وإنشاء حساب فيسبوك خاص بمحمد إلا أنه لم يضع اسمه الحقيقي عليه.

- لن نكتب اسمك الحقيقي في الفيس يا عم محمد.
- لماذا؟
- حتىٰ تتعلم كيفية التعامل معه.
- وهل يستدعي الأمر عمل هذا؟
- نعم.. اسأل مجرب ولا تسأل طبيب.

وضح له عبد العالم أكثر بقوله: أكثر الناس في اليمن ليس لديهم معرفة كافية بما تسمىٰ إعدادات الخصوصية ولا يعرفون كيف يحمون خصوصياتهم علىٰ الفيس بوك، وقد حدثت معي قصة محرجة سوف أحدثك عنها.

رد عليه محمد: لا داعي أن تخبرني طالما أنها محرجة.

- اهييه قد عرفت بها الجميع.
- ما الذي حدث؟

تكلم عبد العالم وهو مبتسم فبدت أسنانه السوداء المتآكلة:

- بعد أن عملت لي حسابًا في الفيس قمت بطلب صداقة من جميع زملائي ومعارفي وأقاربي علىٰ "فيس بوك"، وقبلت أيضًا

طلبات صداقة وصلتني. وفي أحد الأيام دخلت إلىٰ صفحة جنسية، وقمت بالإعجاب بها دون أن أعرف أن أصدقائي سيشاهدون إعجابي ولم أدرِ إلا وأنا محط سخريتهم جميعًا.

- إذن لا داعي للفيسبوك. قال محمد بنبرة غير جدية.
- لا داعي للقلق، فقط يجب علىٰ الإنسان أن يكون حذرًا.

فتح الهاتف أمام محمد بابًا واسعًا، ومتاهة متشعبة، تبدو كغابة مظلمة، وكان عبد العالم مرجعه ودليله في كل ما يجهله.

❋ ❋ ❋

١١

نجحت خطة توزيع الأحجار، وأظهرت فوائد جمة. استطاع محمد بيع كل ما لديه من ذلك النوع من الأحجار، وبسعر ممتاز. كانت تنفد من بعض المحلات، لتتواجد في محلات أخرىٰ يقومون ببيعها بسرعة أيضًا. ثمة أنواع أخرىٰ كثيرة تأتي من كل المحافظات تقريبًا، يشتغلون بها أيضًا؛ فما هو رائج في منطقة ما، لا يكون رائجًا في مناطق أخرىٰ. بالنسبة للحجر الصلوي، محل الخلاف، فهي الأكثر رواجًا في محافظة تعز نظرًا لكلفتها المنخفضة بسبب قرب المسافة بين الجبال التي تأتي منها والمناشير التي تقوم بقصها.

بعد فترة قصيرة فوجئ محمد بنبأ اعتقال دورية أمنية، تابعة للحوثيين، ثلاثة من أعضاء لجنة الأحجار وخمسة آخرين من أصحاب المحلات، اثنان منهم من أصحاب المحلات الكبيرة. كانوا جميعًا في خط الحوبان ينتظرون مجيء الشاحنات لتوزيعها. ما صدم الجميع أكثر أن الحوثيين قاموا بنقلهم إلىٰ مجمع الصالح الذي تتخذه الجماعة معتقلًا له سمعة مرعبة، ولم توقفهم في قسم الشرطة أو في سجن إدارة الأمن كما هو مفترض.

- ما الذي حدث من قبل أصحابنا حتىٰ تقوموا باعتقالهم؟ بنبرة هادئة خاطب حسين عامر مدير إدارة الأمن.

- لا أعرف السبب حقيقة، ولكن الأمر يتطلب الصبر. سأنظر في الموضوع، وسأتصل بك. لا داعي لبقائكم هنا... لو سمحتم انصرفوا.

كان محمد قد ذهب مع حسين عامر، ابن عمه، ومجموعة من أصحاب المحلات لمحاولة الإفراج عن أصحابهم.

- طيب، قبل أن نذهب، هل يمكننا رؤيتهم؟
- لا.
- لماذا؟
- لأنهم ليسوا مسجونين لدي. أبو عادل هو من قام بإحضارهم، ولا يُسمح بزيارة من يسجنهم أبو عادل إلا بإذن شخصي منه.

غادر الجميع وقبل خروجهم من مبنىٰ إدارة الأمن اقترح البعض أن يتم دفع رشوة لهذا الضابط حتىٰ يسمح لهم بزيارتهم. لكن حسين عامر أقنعهم بأن لا فائدة من هذا. كان سؤالًا ساذجًا طرحه محمد حين قال:

- من هو أبو عادل؟
- المشرف الأمني للحوثيين.

أجاب أحد رفاقه. فحاول محمد أن يظهر بعض الفهم فسأل:

- أقصد أين نجده؟
- بالفعل يجب أن نعرف أين هو ونتحدث إليه.

كان حسين عامر يهاتف أبو رفاد الذي غادر تعز إلىٰ مأرب لمتابعة بعض أعماله هناك، وأخبره بما حدث، وفور إنهاء الاتصال طلب من الجميع المغادرة.

كان مجاهد شامتًا في المعتقلين حتىٰ أنه لم يذهب مع من ذهب إلىٰ إدارة الأمن. اكتفىٰ بالاتصال بمحمد وبدلًا من الاطمئنان عليهم طرح عليه سؤالًا مرعبًا.

- متىٰ سيتم إعدامهم؟
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... فال الله ولا فالك، لماذا تتحدث هكذا؟ لا يوجد سبب لاعتقالهم أصلًا، وقد أخبرونا أنه سيتم الإفراج عنهم اليوم.

في المساء أخبر محمد إخوته مبشرًا أنه قد تلقىٰ اتصالًا من أحد الزبائن القدامىٰ للمحل من أهالي منطقة قَعْطَبة، طلب دفعة جديدة من الأحجار وأنه قد حوَّل له مبلغ عشرين ألف ريال سعودي كعربون للعمل. بدا الامتعاض وعدم الرضا ظاهرًا علىٰ وجه عبد الله وعبد الكريم الذي قال:

- ما هذا الحظ؟ لا يأتينا إلا الزبائن الذين ليس منهم ومن عملهم فائدة. وأضاف: هذا الزبون يحب نفسه، ولو لم يجدنا سُذجًا لم يكن ليشتري منا.

قال عبد الله مخاطبًا محمد:

- لن يجد أحدًا من كل أصحاب المناشير يوافق علىٰ شروطه ومواصفاته المجحفة. حتىٰ أصحاب المحلات الكبيرة الذين لديهم مناشير أتوماتيكية، وونشات لم يقبلوا بهذا العمل، وأنا أعرف ذلك، علىٰ الأقل اطلب منه زيادةٍ في السعر عن سعر الدفعة السابقة.
- قد فعلت.. لا تقلقوا.

قال صالح:

- لا تقلق أنت... سوف نشتغل ولو استدعىٰ الأمر قصها بأسناننا، فقط نحتاج إلىٰ معلم يشتغل معنا. وأيضًا اتصل بأحمد، واطلب منه أن يأتي، وسنحتاج إلىٰ عامل أيضًا. أضاف: ما لها إلا الجمراني، سأتصل به وأطلب منه المجيء.

حين عاد محمد إلىٰ هاتفه القديم وجد الجمراني في قائمة الأسماء. كما وجد منه رسائل حافلة بالأخطاء الإملائية، والكلمات التي لا يُعرف

معناها إلا من خلال السياق، مثل "جعمه مبركه" هي التهنئة التي يرسلها عشية الجمعة.

حين غادر عبد العالم المحل في عدن عائدًا إلىٰ منطقة الحجرية للدراسة في معهد الشمسرة المهني كان الجمراني هو البديل غير المناسب له؛ كون أمه من الأقارب البعيدين للحاج عبده، ويطلق الجمراني علىٰ الإخوة الخمسة "أبناء خالي".

ضخم الجثة، عريض المنكبين، واسع العينين، ولبشرته لون أحمر أكسبه نفورًا من الآخرين من النظرة الأولىٰ. وله لحيه شقراء كثيفة الشعر ورأس كبير تتوسطه صلعة ناصعة. كثيرًا ما كان يترك لحيته والشعر المتبقي علىٰ جانبي رأسه دون حلاقة، مما يجعل منظره شبيها بالقراصنة.

- مع من تعاركت؟ سأله محمد حين أتىٰ إليه وعلىٰ وجهه بعض الخدوش.
- مع صالح ولد عمي مصلح.
- ما هو السبب؟
- يريد أن نستمر في العمل أكثر من الدوام فرفضت، وحين وجدني أجلس داخل الغرفة أراد أن يطردني فقلت له أنا جالس في حق خالي. فقال: لم يعد لخالك شيء هنا. سأل الجمراني محمد:

- هل هو صادق في كلامه؟ هل لم تعودا مشاركين في ذلك المحل؟
- لا تصدقه لا زلنا شركاء حتىٰ الآن.
- إذن سأعود إليه وأجلس غصبًا عنهم.
- لا. لا داعي لعودتك، ولكن أخبرني ما هو موقف أخيه علي مصلح من العراك؟
- أعطاني بقية حسابي وزادني ألفي ريال وطلب مني المغادرة، وحين رفضت صرخ في وجهي بشدة. الآن أريد منكم يا أبناء خالي أن تأتوا معي وتعيدوني إلىٰ المحل لأعمل فيه غصبًا عن أبناء عمي.

بالرغم من جسده المكتنز وعضلاته الضخمة التي تساعده علىٰ تحمل الأعمال الشاقة التي لا يستطيع أحد غيره احتمالها، إلا أن للجمراني عقلًا صغيرًا، علىٰ ما يبدو، فطريقة تفكيره ونظرته للأمور سطحية وساذجة للغاية.

المحل آنف الذكر هو الوحيد المتبقي من شراكات الحاج عبده الكثيرة، ويعتبر من أقدمها، وربما أن الشراكة المتكافئة هي سبب بقائه حتىٰ الآن. شارك فيه الحاج عبده بنسبة خمسة وعشرين في المائة إلىٰ جانب ثلاثة شركاء آخرين، أحدهم من أبناء عمومته، والشريكان

الآخران ابنا عم لبعضهما ومن القبيلة نفسها. دفع كل شريك تكلفة سهمه وقت تجهيز المحل. تولىٰ علي مصلح، أصغر الشركاء سنًا في تلك الفترة، إدارة المحل الذي ظلت أرباحه قليلة ومحدودة، وكان يقوم بتوزيع المكسب علىٰ الشركاء الأربعة في بداية شهر رمضان من كل عام. أبدىٰ الشركاء قناعة وثقة في علي مصلح، حتىٰ الحاج عبده كان راضيًا عن أدائه، فحين خانه جميع شركائه علىٰ حد تعبيره، وفشل جميع المشرفين الذين استلموا محله الخاص بقيت هذه الشراكة مصدر دخله الوحيد. كان محمد وإخوته ممتنين لعلي مصلح وحتىٰ والدته كثيرًا ما كانت تشيد به.

- لن نتعارك معهم من أجلك يا جمراني. صرخ أحمد في وجهه، وأضاف: أنت دائمًا تحب المشاكل.

استاء الجمراني، وبدا عليه الغضب فرد عليه:

- أنت جبان، ولا أحتاج إلىٰ شخص مثلك. ثم إني لا أتحدث معك، أنا أتحدث إلىٰ محمد.

ثم وجه كلامه إلىٰ محمد وقد بدأ مجهشًا بالبكاء:

- أريدك أن تعيدني للعمل في نصيبكم من ذلك المحل الذي يستلمه أبناء عمي، ويعتبرونه ملكية خاصه بهم.

- لا تقلق. ستعمل لدينا هنا. دع عنك المهاترة مع أولاد عمك مصلح. حدثه محمد وهو يضرب علىٰ كتفه الضخمة مربتًا.

ما أن أطل الجمراني علىٰ المناشير في صباح اليوم التالي حتىٰ أصعد تنهيدة كبيرة، ثم قال مجلجلًا: لا إله إلا الله.. كان هذا المحل سيصبح شركة عملاقة للرخام والأحجار لو أن خالي عبده لم يتركه وذهب يلاحق قضية الإرث في صنعاء.

لم يشأ محمد أن يصل إلىٰ سمع إخوته شيء سيئ عن والدهم. فنهر الجمراني:

- اشتغل وأنت ساكت يا جمراني.

قام محمد بتوزيع مهام العمل بحيث أبقىٰ الجمراني بعيدًا عن العم محمد الجرادي؛ حتىٰ لا يحتكا بسبب طباعهما الحادة، كما يعرف محمد أن عمهم والجمراني قد تشاجرا في أوقات سابقة مرات عدة.

حين بدأ إخوته وبقية العمال بأخذ فرشان نومهم إلىٰ سطح الغرف، كان محمد يقوم ببعض الحسابات وتدوين الدخل والخرج اليومي للمحل في دفتر كبير. فوجئ بالجمراني قد قفل راجعًا، شاكيًا بأن الجرادي قام بطرده من سطح الغرفة التي ينام فوقها هو والصبري، ولم يسمح له بالنوم إلىٰ جوارهما.

- لا عليك. سننام جميعًا فوق سطح هذه الغرفة. السطح الآخر خاص بعمي وبالصبري. الغرفتان متجاورتان وكلا السطحين يصلح للنوم.

اقتنع الجمراني وصعد إلىٰ جوار الأخوين أحمد وصالح، وحين أكمل محمد عمله ولحق بهم، وجد أن الجمراني قد ضاجع نصف نساء الكرة الأرضية وفقًا لتعبير الأخ صالح الذي دعا محمد للحاق بهم والاستماع إلىٰ حديث الجمراني المشوق.

رغم قلة كلامه في كل المساءات وعدم رغبته في الحديث مع أي شخص وتفضيله البقاء صامتًا بعد مضغ القات إلا أن العم محمد الجرادي خاطب محمد من سطح الغرفة المجاورة وهو ينفث سحابة من دخان سيجارته:

- اشهد علىٰ هذا المجنون، سوف أخبر ابنتنا بكل ما يتحدث به. في إشارة إلىٰ أن الجمراني متزوج من قبيلتهم.
- لست خائفًا يا جرادي. أنا لا أخاف منها مثلما تخاف أنت من زوجتك.
- سمعت أنها تقوم بضربك.

الحقيقة أن الجمراني كان منفلتًا في شبابه، وكثير العربدة، وكان لصًا مأجورًا، ومرتزقًا رخيصًا، يقوم بأعمال شريرة لكل من أعطاه سلاحًا

وقاتًا، بل إنه كان يقوم بتلك الأعمال القذرة مجانًا إذا قام أحد أقاربه بشحنه بالمشاعر العصبية.

في إحدىٰ المشاكل القبلية في القرية، وقد قامت بحلها إدارة أمن محافظة ذمار، اشترط مدير الأمن علىٰ القبيلتين المتنازعتين وضع عدد من أبنائهم في السجن المركزي كرهائن لضمان تنفيذ بنود الصلح. في مثل هذه الحالات تختار القبائل من هم مثل الجمراني لهذه المهمة، ويخصصون لهم راتبًا شهريًا، يجمعه كل أفراد القبيلة عن طريق الغرم. قام أحد أبناء عمه مخلصًا بجمع راتب الجمراني، ولم يكن يعطيه إلا مصاريف قليلة، وبما أن الجمراني في السجن استطاع الأستاذ محمد غليس التصرف بالراتب بشكل مناسب. حيث قام بخطبة أرملة متوسطة السن والتجهيز للعرس بشكل كامل، ولم يخرج الجمراني من السجن إلا عريسًا. نجحت تلك المرأة في ترويض الوحش، بطريقة أذهلت الجميع، وأنجبت منه أطفالًا رائعين، ومن يومها أصبح الجمراني هادئًا ولم يعد يشكل أي خطر إلا من لسانه، وحين يكون بعيدًا عن زوجته فقط.

- لا ألوم عمي حين قام بمنعه من النوم إلىٰ جواره.

قالها محمد لإخوته وقد ضاقوا ذرعًا بشخير الجمراني الذي منعهم من النوم.

١٢

مضت أيام عدة علىٰ احتجاز أصحاب المحلات، مما استدعىٰ جمع مبلغ من المال للنفقة عليهم. فُرِض علىٰ كل محل من المحلات الصغيرة مبلغ خمسة آلاف ريال والمحلات الكبيرة مبلغ عشرة آلاف ريال.

كان محمد قد ذهب لمقابلة المشرف أبو عادل مع مجموعة من أصحاب المحلات. سمح لهم بزيارة رفاقهم فكانت صدمتهم كبيرة حين تحدث إليهم المساجين:

- العزي بوبح غير موجود، اقتادوه إلىٰ مكان مجهول... ثم لماذا يحتجزوننا بين أسرىٰ الحرب؟ لماذا! لماذا؟
- "اطمئنوا سوف نخرجكم في أقرب وقت."

أخبرهم حسين عامر ومضىٰ مع من أتىٰ معه لمقابلة المشرف الحوثي.

فارع الطول شديد النحافة، يبدو في الأربعينيات من عمره، يرتدي ثوبًا من الحرير الصناعي، يبدو أن لونه كان أخضرَ ذات زمن، ولكنه صار باهتًا الآن. يضع علىٰ خصره حزامًا أسودَ مرتخيًا، ويحمل علىٰ كتفيه جعبة الذخيرة التي لها جناحان: أيسر وأيمن، ولها شكل الكوت. في تلك

الجعبة ست خزنات احتياطية لسلاح "الإيكي" الذي يحمله ويثبت فيه خزانة إضافية إلىٰ جانب خزانته الأصلية.

- أهلًا وسهلًا بأصحاب البلاد.

قالها وهو يقوم بطي مسبحة طويلة ولها خرزة صغيرة بارزة، ويعلقها في صاعق التفجير الخاص بالقنبلة الموجودة في جعبته. لاحظ محمد زيف مشاعر هذا المشرف نحوهم وإن كان يحاول إظهار غير ذلك، كما لاحظ كمية احتقاره لمن يُعرفون بالمتحوثين، وهم ضباط برتب مختلفة في المؤسستين الأمنية والعسكرية، ورؤساء المكاتب العامة للوزارات في تعز الذين كانوا يقدمون له أوراقًا لمراجعتها أو التوقيع عليها، فكان يرفض أغلبها فيعودون صاغرين.

- أصحابكم ارتكبوا مخالفة كبيرة بتجمهرهم وتجمعهم في ساعة متأخرة من الليل، وأنتم تعرفون الأوضاع التي تمر بها البلاد.
- ما دعاهم إلىٰ ذلك هي الضرورة، حيث إن الشاحنات لا تخرج من الجبل إلا ليلًا. أخذوا يشرحون له القصة كاملة، ويؤكدون دعمهم وتأييدهم للسيد ووقوفهم في صف الوطن.

لكنه أغلق الباب في وجوههم حين قال:

- متىٰ تأكدنا من صحة كلامكم سوف نفرج عنهم فورًا.

- "لكن أين العزي بوبح؟ ليس بينهم أين هو؟" سأله حسين عامر، وترقب الجميع الرد الذي جاء باردًا.

- موجود عندي، وسيخرج مع البقية حين يكتمل التحقيق معه.

غادر الجميع وهم في حيرة كبيرة وقلق شديد علىٰ رفاقهم، وعلىٰ العزي بوبح بشكل خاص.. لماذا هو في زنزانة انفرادية؟ لماذا لم يسمحوا لنا بزيارته؟ ربما وضعوه في "الضغاطة"! وكانت هذه ما لا يطيق أحد سماعها؛ فغرفة التعذيب لدىٰ الحوثيين تُشبَّه بِقِدر الضغط.

في ظهيرة اليوم التالي ذهب محمد ومجاهد إليهم بوجبة الغداء والقات، والكثير من قناني المياه المعدنية، وأكياس الفاكهة. إلا أن المساجين من أبناء القرية طلبوا منهم عدم إحضار الغداء في وقت مبكر لأن غداء السجن يأتي متأخرًا؛ فلن يكون بمقدورهم تناول الطعام، والآخرون ينظرون إليهم والغداء لن يكفي الجميع لو دعوهم المشاركة.

تبادلوا الحديث من فتحة صغيرة موجودة علىٰ باب السجن وقبل مغادرتهم طلب أحد السجناء أن ينتظروا ليحملوا له رسالة.

- إلىٰ أين تريد أن نوصلها؟ خاطبه مجاهد وأضاف: إذا كانت إلىٰ مناطق سيطرة الشرعية فلن نحملها.

رد ضاحكًا وهو يمزق علبة سجائر فارغة ويستند علىٰ الوجه الداخلي للباب لكتابة رسالته:

- لا، هي إلىٰ مكان قريب جدًا من هنا. وأخرج يده مادًا برسالته قائلًا: ضعوها في بقالة مقبل التي علىٰ مدخل سوق القات وهو سيسلمها لأخي.

تناولها منه محمد. رغم أناقة الخط إلا أن محمد شعر بقشعريرة في جسده وهو يقرأ الرسالة المكونة من خمس كلمات: "مرهم للحكة، صابون، حبوب للمعدة."

شعر بالغثيان والدوار وهو يهبط من سلم العمارة التي صارت معتقلًا، وقد نزعت الأبواب الخشبية للشقق السكنية، وسدت بالبلك الخرسانية والإسمنت، كما تم استبدال بعضها بأبواب حديدية.

"حولوا الطوابق العليا إلىٰ سجون ويستخدمون الطوابق السفلىٰ إدارات." علق مجاهد وهو يرىٰ التشوهات الإسمنتية تطغىٰ علىٰ طلاء الجدران. أضاف: "فإذا جاء الطيران للقصف يُقتل الأسرىٰ الذين يُتخذون دروعًا بشرية.... زنوااات... ما يقدر لهم إلا الله." ربما كان مجاهد معجبًا بطريقة تصميم الحوثيين للسجون، لكن محمد ظل شاردًا ولم ينطق بكلمة.

اعتقد بعض أصحاب المحلات الصغيرة أن الاتفاق قد أصبح لاغيًا بسبب اعتقال أفراد اللجنة، فسارعوا إلىٰ خرقه. قام محمد الخجي بالشراء بطريقة مخالفة، فوقف الجميع بحزم في وجهه وأجبروه علىٰ

تنفيذ الشرط الجزائي المتمثل في الثور الهجر. كان أبو رفاد في طريقه إلىٰ مأرب لكنه قطع رحلته وعاد قبل تجاوزه منطقة قانية. طلب منهم أن يخففوا العقوبة والاكتفاء بعجلٍ صغير السن، تجاوزت قيمته مئة ألف ريال. استضاف أبو رفاد الهجر في بيته وقام بذبح عجل آخر، ودعا جميع ملاك المناشير إلىٰ وجبة الغداء. في المقيل أخبرهم أن بقاء الاتفاق ساريًا هو الطريق الوحيد لإثبات براءة المعتقلين منهم، وقرروا الذهاب مرة أخرىٰ لمتابعة وضع المعتقلين.

كانت التاسعة مساءً حين التقوا بأبو عادل. وقف منتصبًا وصامتًا، في حين تدب حركة كبيرة من قبل أفراده الذين يرتدون خليطًا غير متجانس من ملابس مدنية وعسكرية، ويتحركون كخلية نحل. حين سُمع صوت تحليق الطائرات فتح كيس "الشَّمة" (السعوط/ البردقان) وقام بسكب كمية كبيرة في فمه. وقبل أن يتحدث إليه أحد منهم صاح في شخص قريب منه قائلًا: "أخرجوا أصحاب المناشير من السجن."

حينها دوىٰ انفجار هائل منعهم من الفرحة. التفت الجميع جهة مطار تعز حيث أفرغت الطائرة حمولتها. سادت جلبة بين الحاضرين، ما عدا المشرف الذي لم يلتفت ولم يتحرك من مكانه كالبقية. بدا وكأنه يصيخ السمع لأصوات الطائرات المعادية التي لم تهز فيه شعرة، أو أن لديه قرون استشعار جعلته يعرف بقدومها! لذلك سارع إلىٰ إصدار

الأوامر بالإفراج عن رفاقهم، ربما هو مطمئن كونه يستخدم الأسرىٰ دروعًا بشرية؟ أم أن الشمة التي يتعاطاها لها مفعول مخدر! أسئلة كثيرة دارت في رأس محمد لم يعرف إجاباتها.

كانت المفاجأة أن العزي بوبح هو أول الخارجين. كان يبدو عليه الارتياح والشعور بالرضا عن الحوثيين، بل إنه بدأ يكيل لهم المدح والثناء، علىٰ معاملتهم الكريمة للسجناء، الذين يعتبرونهم ضيوفًا لديهم.

سأله حسين عامر بعد عودتهم من المعتقل:

- ما الذي حدث بالضبط؟
- حين أوصلونا سألونا من هو المسؤول عن التجمع؟ فقلت أنا.

يتميز العزي بوبح بشخصية قيادية لها سمات التضحية وتحمل المسؤولية. ظروفه المادية صعبة، مع أنه يمتلك منشارًا أوتوماتيكيًا، ولديه الكثير من الأصدقاء الذين لا ينفكون عن المقيل عنده نظرًا لكونه مضيافًا وبشوشًا.

عندما قدم نفسه لتحمل المسؤولية عن بقية المعتقلين ظن أنه سيتم إخلاء سبيلهم، إلا أن المشرف قال للجنود: خذوا كبير المجموعة إلىٰ الأسفل، وخذوا البقية إلىٰ الأعلىٰ.

"ما أن سمعتُ كلمة أعلىٰ وأسفل حتىٰ ارتعدت أوصالي." تابع العزي بوبح قائلًا:

ظننت أنهم سيأخذونني إلىٰ زنزانة مظلمة ويأخذون البقية إلىٰ شقق مفروشة، ولكنني وجدت الشقق المفروشة أمامي. مجلس للمقيل مفروش فرشًا فاخرًا وتوجد فيه شاشة تلفزيونية كبيرة، ومصلىٰ مستقل، وحمامات نظيفة، ومكان واسع للنوم.

تحدث العزي بوبح عما أسماه البرنامج اليومي للصلاة والتسبيح والاستغفار الذي كانوا يقومون به، والبرنامج الثقافي، علىٰ حد وصفه، الذي يشمل مشاهدة نشرة أخبار الثامنة والنصف، التي تبثها قناة المسيرة، وكذا الاستماع إلىٰ محاضرات "السيد القائد عبدالملك الحوثي"، وشقيقه الراحل حسين بدر الدين الحوثي.

اندهش الجميع من تصرف الحوثيين مع العزي بوبح، ما عدا محمد الذي كان يعرف هذه الأساليب والهدف منها؛ فما شاهده العزي بوبح كان قد شاهده محمد في سجن فاخر للحوثيين ذهب إليه بقدميه.

❋ ❋ ❋

١٣

شرع محمد في التحضير للعمل الجديد الذي اتفق عليه مع الزبون صاحب منطقة قَعْطَبة، إلا أنه وجد أن الزيادة التي طلبها من الزبون قد قابلتها زيادة أخرىٰ في أسعار المواد الخام للعمل المتمثلة في الأحجار الأرحبي. هذا ما أخبره به العطوي، الذي يمتلك شاحنة إسرائيلية، وكان محمد قد اعتاد التعامل معه لجلب هذا النوع من الأحجار الثقيلة. فدعا أخاه صالح للتشاور في مكان الصلاة، وهو المكان المفضل له بعيدًا عن مسامع الآخرين.

- ما رأيك؟ هل نعيد العربون حق الزبون... أنا حسبت وأعتقد أنه لن يكون هناك مكسب كبير.
- هل هناك خسارة؟
- لا... بعد احتساب أجر العامل والمعلم، سوف يتبقىٰ لنا ما يفترض أن يكون حسابكم، ومكسب بسيط.
- هذا يكفي، وأن نشتغل أفضل من أن نتوقف.. في الحركة بركة.

طلب محمد من صالح أن يخبر الجمراني والمعلم، القادمين للعمل يوم السبت، أنهم سوف يعطون المعلم سبعة آلاف ريال، والعامل خمسة آلاف كأجر يومي، مثلما يعطي كل أصحاب المحلات الصغيرة لعمالهم ومعلميهم من أجر، وأنهم سوف يتقاسمون "الحدرة" (وجبة الطعام

المشتركة)، وكل واحد يتناول القات بالقدر الذي يريده؛ لأنهم سيخصمون قيمته عليهم، كما طلب منه أن يشترط عليهم الالتزام بدوام كامل: ثماني ساعات عمل في اليوم، ست ساعات صباحًا، وساعتان بعد الظهر، مثل بقية محلات المناشير. عادة ما يلجأ محمد إلىٰ أخيه صالح للتفاهم مع العمال في هذه الأمور منعًا للإحراج.

حين عاد محمد إلىٰ هاتفه القديم وجد أجر العمل اليومي للعمال وأجر عمل إخوته وساعات الدوام مدونة. أدهشه الفارق الشاسع خلال عشر سنوات، وكيف انهارت قيمة العملة، وارتفعت أسعار السلع الأساسية بشكل جنوني.

سافر أحمد لقضاء الإجازة، وفور وصوله البيت أخبر والده بحالة التسيب والفوضىٰ في المحل قائلًا: إذا انطفأت الكهرباء قبل ساعة من الدوام يتغاضىٰ محمد عنها، ولا يطلب العودة للعمل حين تعود الكهرباء، يتساهل محمد مع العمال لكنهم لا يتساهلون عند طلب حسابهم.. نحن إخوته نشتغل بالسخرة والآخرون يأخذون أجرتهم كاملة.. لن أصبر علىٰ هذا الحال وسأبحث عن عمل في مكان آخر.

- ما الذي يحدث عندك في المحل؟

سأل الحاج عبده ابنه محمد في اتصال شديد اللهجة. لم يجرؤ محمد علىٰ مناقشة والده بل اكتفىٰ بالطلب منه أن ينزل إلىٰ عدن ويشاهد

بنفسه. وحين شاهد عمه محمد الجرادي علامات الضنك علىٰ وجهه سأله:

- مالك؟
- أحمد يحرض أبي ضدي، وأبي يتهمني بالإهمال.

الحقيقة أن محمد كان يتغاضىٰ عن عمه احترامًا لسنه وقرابته. كان يطلب من الجميع أن يكملوا دوامهم، أو يقوم بقسمة أجر العمل اليومي علىٰ ساعات العمل ويقوم بتسجيل الناتج كسحب نقدي علىٰ العاملين، بعد أن عرض عليهم هذه الطريقة ووافقوا. إلا أن أحمد لم تكن تعجبه هذه الطريقة.

- يحمدوا الله عليك وعلىٰ هذا المحل. قال له العم محمد مستنكرًا.
- لا أدري كيف يفكر أخي أحمد، حتىٰ أنه طلب أن نعطيه حسابه مثل أي معلم، وإلا فإنه سيبحث عن عمل في مكان آخر، وقد أقنع والدي.
- أخوك أحمد شخص عاجز وحسود، هذا أولًا، وثانيًا لماذا أنت قلق من دفع حساب إخوتك؟
- لأنهم يصرفون أكثر من أي معلم آخر، وحين يسافر أحد منا يأخذ مبلغًا من المال دون حساب، أما مصاريف أبي وجميع

طلبات البيت، فأقوم بتحويلها من هنا أو أحملها معي حين أعود.

- لهذا أرىٰ أنها أتت فرصة لضبطهم وخفض نفقاتهم، ومادام أحمد قد طلب ذلك طبق ما سأخبرك به ولن تندم.
- ماذا تعني؟
- لو لم يكن لديكم محل كنتم ستعملون عند أناسٍ آخرين، أليس كذلك؟

هز محمد رأسه موافقًا. أضاف الجرادي:

- الذين يعملون عند الناس.. ألا يصرفون علىٰ بيوتهم وينفقون علىٰ أسرهم؟
- نعم هم يفعلون.
- بينما إخوتك لا يفعلون شيئًا. وهو يقرب رأسه إلىٰ جوار إذن محمد قال: احسب لهم أجرة عمل، واطلب منهم تحمل جزء من نفقات البيت.

فهم محمد ما يريده عمه، وبدأ يفكر في كيفية إيجاد طريقة مناسبة لعرضها علىٰ والده القادم إلىٰ عدن.

- متىٰ سيأتي أبوك؟
- أعتقد يوم السبت.

- إذن سأسافر يوم الخميس.
- لماذا يا عم؟
- لو حصل أي اختلاف فيما بينكم سوف يقول أنا السبب، وربما يكون أحمد قد قام بشحنه ضدي أنا أيضًا.

لم يخبر محمد والده أن عمه محمد الجرادي هو من اقترح الفكرة التي أعجبت الحاج عبده إعجابًا شديدًا. قال محمد سوف نعطيهم ألفي ريال في اليوم ونخصم عليهم قيمة الوجبات والقات مثل بقية العمال، وحين يسافر أحدهم نقوم بتجميل حسابه ونعطيه نصفه والنصف الآخر نضيفه إلىٰ بند مصاريف البيت. شرح محمد لوالده ما قاله له عمه: كل العمال يصرفون علىٰ أسرهم ويجب علىٰ إخوتي تحمل المسؤولية أيضًا. وافق الحاج عبده ووافق الإخوة.

أبدىٰ محمد تشددًا كبيرًا في تطبيق خطة الجرادي تجاه إخوته حتىٰ عام ٢٠١١ م حين عصفت أحداث الربيع العربي بالبلاد وأدت إلىٰ توقف العمل. كان محمد متواجدًا في القرية حين شرع الناس في تكديس المواد التموينية؛ خوفًا من اشتعال الحرب الأهلية بعد انشقاق الجنرال علي محسن الأحمر وانضمامه إلىٰ الثوار ضد الرئيس صالح.

"يا كبير القحر، احذر علىٰ طيزك احذر
لا حدا يبرمك، بعدا عليا تعذر."

أخذ العم محمد الجرادي ينشد الأشعار الماجنة لتمضية الوقت وطرد الملل، وهو بصحبة محمد ينتظران دورهما في الحصول علىٰ أكياس القمح وسط طابور طويل أمام المؤسسة الاقتصادية اليمنية في مدينة ذمار.

- لماذا طابور النساء يمشي أكثر من طابور الرجال؟ صرخ العم محمد الجرادي في وجوه الجنود الذين ينظمون الناس ويبحثون عمن يستفزهم كي يغلقوا أبواب المؤسسة.
- طَوْبِر وأنت ساكت أو انقلع من هنا.
- بنقلع طبعًا، لكن بعدما أقلع عينك يا مخنوث.

أمسك محمد وثلاثة أشخاص آخرين بالجرادي الذي يريد الانقضاض علىٰ ذلك الجندي الوقح. وعلىٰ عكس ما هو متوقع لم يقف الجندي للدفاع عن نفسه بل أخذ يصرخ ويولول، حتىٰ أتىٰ ضابط أكبر منه برفقة مدير المؤسسة، وشكا لهما ما حدث وهو يشير بيده إلىٰ الجرادي كما يفعل الأطفال.

- هذا يريد أن يضربني.

صرخ الضابط بأعلىٰ صوته:

- خلاص، طالما في فوضىٰ، أغلقوا المؤسسة.

١٤

لاحظ محمد أن علوي لم يذهب إلىٰ عمله في الساعة السادسة صباحًا. حين أيقظه لتناول طعام الفطور معهم في الساعة الثامنة، اكتفىٰ بلقيمات قليلة.

سأله محمد:

- ما بك، لماذا لا تأكل؟
- الحمد لله شبعت.

كان عبد الله يعرف أن علوي قد أصبح عاطلًا، تشاكيا ليلًا علىٰ ما يبدو. قال عبد الله مواسيًا:

- لو عرفنا أنهم سيوقفونك عن عملك ما كنا اتصلنا للجمراني.
- لا عليك، سأبحث عن عمل مع الحمالين.
- لماذا أوقفوه عن عمله؟ سأل محمد أخاه عبد الله، بعد مغادرة علوي.

قص عليهم عبد الله ما عرفه من علوي، وما فهمه ببديهته قائلًا:

- كانوا قد سمحوا له بالتعلم علىٰ أحد المناشير الأتوماتيكية، فارتكب خطأ وحماقة. الخطأ أنه قام بإدخال المنشار في الكتلة

الرخام بشكل أسرع من اللازم، فتسبب في اصطدام الشفرة بالكتلة، مما أفقد الشفرة بعضًا من أسنانها الماسية القاطعة، فقام المشرف على العمل بتوبيخه على هذا الخطأ.

- وما هي الحماقة يا أستاذ؟
- لما كان لسان علوي حادًا لم يسكت على ذلك التوبيخ، في حين كان يفترض أن يسكت، فالمشرف يقوم بعمله حتى لو تخلل توبيخه بعض الشتائم.

قال عبد الكريم مستنكرًا:

- كيف تريده أن يسكت وأنت تقول إن المشرف شتمه؟ هو إنسان وعنده كرامة، يلعن أبو الشغل الذي يُفقد الإنسان كرامته.
- لو أن علوي سكت لم يكن المشرف ليخبر صاحب المحل. قال له إن علوي يستمع إلى الزوامل أثناء العمل ولا يقوم بالتركيز على عمله مما جعله يرتكب الأخطاء.
- وماذا قال صاحب العمل؟
- لم يكتفِ بطرده، بل منعه من دخول محله منعًا باتًا.

قال صالح موضحًا سبب طرد صاحب المحل الكبير لعلوي بالرغم من قرابته:

- وأحمد دانة لا يحب الحوثيين ولا يطيق زواملهم، لذلك طرد علوي ابن جده.

قال عبد الله، مبررًا موقف صاحب المحل:

- أحمد دانة يحب الشخص الذي يشقي على نفسه.

تعاطف عبد الكريم مع علوي مستشهدًا ببيت شعري من أحد الزوامل الحوثية مما أدهش محمد من رهافة حسه وبراعة استشهاده، ومن مدى تأثير الزوامل بعد أن قام الحوثيون بإحياء هذا التراث الذي كاد يندثر. وافق محمد أخاه عبد الكريم بعد أن كان اقتنع بكلام عبد الله في البداية. كانت هذه قناعته: من يسعى لطلب الرزق، ويرغب في الاستمرار في الحياة عليه أن يصبر كثيرًا، خاصة أن البلاد تعيش في حالة حرب والأعمال أصبحت نادرة، ولن يستطيع الصبر إلا من وضع كرامته تحت قدمه.

لم يتجاوز علوي العشرين من عمره، ولم تمض على زواجه إلا سنة واحدة، وها هو ينتظر مولوده الأول، وهو بدون عمل.

- "علوي مخطئ." ببرود قالها ناجي أثناء مقيلهم.

قال محمد:

- أرى أنه مهموم، وأُشفق عليه.

- هو راكن (يعوِّل) علىٰ الإغاثة.

بالرغم من أنها بعيدة جدًا عن جبهات القتال، ولم ينزح منها أو إليها أي أحد، فوجئ أهالي قرية البَرَدون بوصول لجنة إغاثية، لدعم المتضررين من الحرب، يشرف عليها برنامج الغذاء العالمي، وتدعمها الدول المانحة. وحين لم يكن هناك من هو متضرر فعليًا من الحرب، حصل خلاف كبير حول من يستحق تلك الإغاثة المتمثلة في الدقيق، والزيت، والسكر، والعدس. وحين وجدت اللجنة الإغاثية أنها لن تستطيع صرف المساعدات أخبروا أهل القرية أنهم سيوزعونها علىٰ المسجلين في كشوف برنامج الضمان الاجتماعي الحكومي، الذي كان يصرف مبالغ مالية ضئيلة، كل ثلاثة أشهر، للأرامل، والأيتام، الذين خلفتهم حروب القرية، وقد توقف مؤخرًا صرفها بسبب الحرب.

وافق الجميع. ولكي تستطيع اللجنة القيام بعملها، خصصت بعض الحصص للعقال، وبعض الشخصيات المؤثرة في القرية، كرشاوىٰ. رفضت تلك اللجنة أن تعطي أسرة الحاج عبده، وغيرها من الأسر، شيئًا من المساعدات التي تصرفها رغم مطالباتهم المتكررة، لكن الشروط لم تنطبق عليهم بحسب إفادة سكرتير اللجنة؛ فهم لا يمتلكون بطاقة معاش الضمان الاجتماعي. أما من لديهم بطاقات معاش الضمان الاجتماعي فأصبحوا يبيعون حصص الإغاثة بعد أن تكدست في بيوتهم.

- لا نريد أن نخرب على المساكين، عيب، أما من يستلم إغاثة وهو غير مستحق، دعوهم يغنوا بها.

هكذا عبر الحاج عبده عن رأيه أمام مجموعة من المحتجين من الأسر المتوسطة الدخل، حين رأوا أناسًا أفضل منهم دخلًا يحصلون على حصص الإغاثة المريبة.

يرى البعض أن في هذه المساعدات خطرًا كبيرًا على الإنتاج الزراعي المحلي، الهدف منها أن تجعل الناس كسالى، فيتوانون عن زراعة أرضهم! ولماذا يتعبون أنفسهم في زراعة أرض قليلة المحصول، وها هو الدقيق يأتيهم "مطحونًا ومملوحًا" كما يقول المثل.. بعد ذلك ستُمنع هذه المساعدات، لنضطر لشرائها ممن يقدمها اليوم مجانًا، ونكون وقتها قد نسينا أرضنا وطريقة زراعتها، وحينها لن يكون لدينا المال اللازم لشراء الغذاء، سوف ينهبون ثرواتنا النفطية والغازية، وجزرنا الاستراتيجية! كان محمد مستغربًا من هذه الآراء التي يتداولها الناس في المقايل، ممن لم يحصلوا على حصة من الإغاثة طبعًا. في حين كان يعتقد هو أن الموضوع أبسط من ذلك.

- من الذي قال لك إن الموضوع بسيط؟ سأله الأستاذ أحمد صبيح، المتعاطف مع الحوثيين، والذي لم يحصل على الإغاثةً. أضاف: المؤامرة أكبر من أن نفهمها.

- لا أعتقد بوجود مؤامرة، أي بلد تحصل فيها حرب، تقوم الأمم المتحدة بتوزيع الإغاثة على سكانه.
- وهل انتهت تلك الحروب من تلك البلدان؟

حين لم يجد محمد إجابة قال:

- على الله...الله يخارجنا.

كون الإغاثة وسيلة لإطالة أمد الحرب أصبحت فكرة مشوشة في رأس محمد المضطرب، حين أكد له الأستاذ سعد عكارس ذلك لكن بطريقة مختلفة.

- هذه الإغاثة دعم سخي للحوثيين، تقدمه الدول الكبرى، عن طريق الأمم المتحدة، وبرنامج الغذاء العالمي، حتى يجد الناس المؤونة اللازمة من الغذاء سيذهبون إلى جبهات القتال دعمًا للحوثيين، الذين يزعمون أنها تشكل خطرًا على السيادة الوطنية.
- كيف يعني؟ رد عليه محمد ببلادة.
- بما أنها تشكل خطرًا على السيادة، فلماذا لا يمنعونها؟ لو لم تكن الإغاثة في صالحهم لقاموا بمنعها حتى لو مات الناس جوعًا.

لا يعـرف محمـد مـدىٰ صـحة أي رأي، ولا يعـرف لمـاذا تصـرف الإغاثة لقريـة غير منكوبـة! لكنه يعرف منذ زمـن بعيد، حتىٰ قبـل العـام ٢٠١١م أنه مطالب بتلبية احتياجات أسرته، فور امتلاكه المال، فقد اعتـاد شراء المواد الغذائية والتموينية بكميات كبيـرة، لـيس خوفًـا مـن اختفائهـا من الأسواق كما يفعل معظم الناس في أوقات الأزمات، بـل خوفًـا مـن اختفاء النقود من جيبه قبل الوفاء بالتزاماته.

- سوف يأتي أحمد يوم السبت، وأنـا سأسـافر يـوم الخمـيس، وهـو سيكون بديلًا لي في إدارة المحل. وجَّه كلامه لإخوته، وأضـاف: أريدكم أن تسمعوا كلامه مهما حصل.

كعادته، وحتىٰ لا يكون مطالبًا بشيء عند وصوله إلىٰ البيت، وحتـىٰ تقتنـع والدتـه أن لـديهم مـا يغنـيهم عـن الإغاثـة، قـام محمـد برفـد بيـتهم بـالقمح والأرز والسـكر، وغيرهـا مـن المتطلبـات. بيـتهم الـذي لا يكـف والده عن تذكيره بأنه أصبح كثير العدد.

طبقًـا لمـا هـو مسـجل في بطاقتـه الشخصـية سـيدخل محمـد عامـه الخـامس والثلاثين في ١ ينـاير ٢٠٢٢ م، لكـن لـيس هـذا عمـره الحقيقـي. سبق وأن أخبره والده أنه اضطر للكذب بشأن تاريخ ميلاده، حتىٰ يـتمكن من استخراج بطاقة شخصية له؛ لكي يستطيع أن ينوب عنه في المعـاملات الماليـة والمصـرفية التـي يتطلـب الأمـر فيهـا أن يكـون للشـخص بطاقـة

شخصية، أما الأمور التي لا داعي لهذه البطاقة فيها، فقد كان يقوم بها منذ وقت مبكر.

لا يعرف محمد كيف ومتىٰ أصبح أبًا لخمسة أطفال، رغم أن زوجته تأخرت كثيرًا في الإنجاب، وكاد والداه أن يزوجاه من جديد، بعد أن أنجبت زوجات أخويه أحمد وصالح قبل أن تنجب زوجته. لكن الله أكرمه بالبشارة، حسب تعبير والدته، ببنت جميلة، كانت تريد أن تسميها بشائر، لكن محمد أصر علىٰ تسميتها باسم والدته:

- حاكمة... لن نجد اسمًا أفضل وأجمل منه.. عل وعسىٰ أن تأتي مثلك يا أمي.
- لا تسمِها بهذا الاسم، حتىٰ لا يكون حظها سيئًا كحظي.

الحاجة حاكمة بنت محمد قايد، امرأة كجبل من حيث قوة احتمالها للأعمال التي أجبرتها الحياة علىٰ القيام بها. هي مثل معظم نساء الريف، إلا أنها أضعف من عصفور حين يتعلق الأمر بحبها لأولادها وخوفها عليهم. ترىٰ فيهم تعويضًا إلهيًا عن طفولتها وشبابها الحافل باليتم والحرمان. كان محمد يجد في أمه ملاذًا يأوي إليه كلما شعر بالحزن، ومخزنًا للطاقة، كلما شعر بالضعف.

لم تلتفت إلىٰ الثراء قصير الأمد لزوجها بل توجست منه، وكثيرًا ما كان محمد يسمع تحذيراتها لوالده من شراكة أقاربه، وخاصة إخوتها.

- أخشىٰ أن يقص هذا المنشار الصلة بينكم.

كان تصورها بسيطًا وحكيمًا. لم تيأس ولم تصب بالإحباط، كما حصل مع زوجها، استمرت في عملها، فلاحة وربة بيت ومربية ماشية. صبرت صبرًا عظيمًا علىٰ تغير طباعه، وتحملت الكثير، حفاظًا علىٰ أطفالها من الضياع، وبيتها من الانهيار. وعلىٰ عكس ما توصي به برامج رعاية الأمومة والطفولة، وبرامج تنظيم الأسرة، كانت الحاجة حاكمة تطلب من أبنائها العودة إلىٰ البيت حين تعرف أن إحداهن تمر بفترة خصوبة، بعد الدورة الشهرية. كانت تتحكم في سفريات الذهاب والإياب لأولادها من البيت إلىٰ المحل إلا فيما ندر. هي من اختارت لهم زوجاتهم، وتعتني بأطفالهم، أكثر من أمهاتهم.

- كيف تعرف أمي ذلك؟ ولماذا؟ دائمًا ما كان محمد يطرح هذا السؤال علىٰ والده.
- لكي تنجبوا أطفالًا.
- نحن نفعل باستمرار، ولا تمر سنة دون أن يأتينا مولود جديد، وأحيانا اثنان.

حين عاد محمد إلىٰ القرية، وجد حالة من الهلع والبلبلة في أوساط الأهالي. قامت السلطات التابعة لحكومة الرئيس هادي في مدينة تعز، أو ما يعرف بالمقاومة، باعتقال أبناء القرية المتواجدين في بير باشا، والذين يعملون في توريد الأحجار من الحوبان.

حين وجد عمه الحاج محمد عامر ينتظره قام بالسلام عليه والاطمئنان علىٰ صحته. وقال له: هيا إلىٰ الداخل لتناول القات سويًا.

- أنا قد قطعت القات. لكن بما أنك أتيت من تعز، أريد أن أسألك عن المشكلة التي قام بها بن علي.
- أية واحدة منهن؟
- هل صحيح أنه هو من أبلغ عن أبناء القرية الذين تم اعتقالهم؟
- لا علم لي. لكن من الذي أخبرك؟
- جواب وصل إلىٰ العاقل من قبائل عدة أخبره أن أهالي المعتقلين قد أرسلوا ما يعرف بالداعي يحملون فيه أحد أبناء قبيلتهم مسؤولية ما قد يحدث لأبنائهم، الذي بلغ عنهم صاحبنا بن علي. اختتم الحاج محمد عامر قوله: ألم يكفه أنه زحلق شريكه؟!

رد عليه محمد:

- بالنسبة لشريكه فقد فضوا الشراكة وانتهوا، وحلف بن علي اليمين في نهاية الأمر... لكن إذا كان هذا الخبر صحيحًا فإنها مصيبة.

كان بن علي يملك محلًا صغيرًا في منطقة المطار القديم، افتتحه بالشراكة مع عمه، والد زوجته، صالح غليس، الذي قدم جزءًا كبيرًا من

تكاليف المحل. قبل البدء بالعمل اشتعلت الحرب، فغادرا المحل الذي كان قد ملئ بالأحجار، ولم يتمكنوا من قصها، وحين عاد الناس إلىٰ أعمالهم بعد أن تكيفوا مع الحرب، عاد بن علي إلىٰ المحل وباع تلك الأحجار بأسعار خيالية، وحين لم يستطع إحضار أحجار خام جديدة لقصها في المنشار، قام بالشراء من المحلات التي تستطيع شراء الأحجار. كان يقوم بنقلها، وبيعها جاهزة بأسعار مرتفعة. هو أول من بدأ بهذه الفكرة، ثم تبعه الكثيرون من أبناء القرية، الذين نافسوه علىٰ تلك الكعكة، وقد كان يضيق بهم ذرعًا، إلا أنه لا يستطيع منعهم علىٰ أية حال. استطاع بن علي بناء شبكة من العلاقات العامة مع قادة الميليشيا التي تتحكم في مدينة تعز، خلال قيامه ببيع الأحجار لهم؛ لبناء فلل وعمائر. كان هؤلاء القادة يشكلون ظهرا لبن علي، يمنعون عنه عصابات النهب التي تسرق أموال الناس جهارًا نهارًا.

كان بن علي يرىٰ أن أبناء عمه الأقربين، وقبيلته أيضًا يحسدونه ويتآمرون عليه، ويتعصبون مع شريكه، وقد أخبر محمد وإخوته بذلك مرات عدة:

- تتعصبون ضدي جميعكم.
- أنت مخطئ.. لا أحد يتعصب ضدك، لكن من غير المعقول أن تنكر شريكك، ولا تعطيه شيئًا.

- نحن شركاء في الأحجار التي كانت موجودة في المحل، أما التي اشتريتها، لسنا شركاء فيها.
- ومن أين قمت بشراء الأحجار التي أدخلتها جاهزة! إلا من قيمة الأحجار التي أنتم شركاء فيها!

رفض بن علي كل الوساطات التي تطالبه بإعطاء شريكه حصته من مكسب العمل، رغم اقتراح الكثيرين أن يأخذ أجرة ما قام به من عمل، وما تبقىٰ يقومون بقسمته، فرفض رفضًا تامًا. وبعد أن مارس عليه أصحاب المحلات الكبيرة الضغوط الاقتصادية، بتوعدهم بعدم بيعه الأحجار من محلاتهم، قبل بالحل راضخًا، ولما كان قد رفض في البداية فقد أثار الشكوك حول أمانته، فطلبوا منه حلف اليمين، بأن لا يخفي شيئًا عن شريكه، والد زوجته.

دخل محمد إلىٰ المقيل فرأىٰ مقدار الحسد الذي يكنه الكثيرون لبن علي. وحين عرض عليهم العاقل جواب أهالي المعتقلين، اقترح البعض تطبيق أعراف قبلية رادعة ومجحفة كفيلة بترك الرجل مفلسًا. قالوا للعاقل: عليك أن تلزمه بإحضار أحد عشر ثورًا عن كل سجين، نذهب بهم إلىٰ أهاليهم لطلب العفو.

كان العاقل مهمومًا وهو يقول لبن علي: لو حصل لهم مكروه فسيكون القضاء هنا ومن عدد رجال قبيلتنا.

دافع بن علي عن نفسه منكرًا كل التهم التي وجهت إليه قائلًا:

- إذا أثبتوا أني بلغت عن أحد اقتلوني الآن.. هم يكذبون لأنهم يحسدونني.

سأله العاقل:

- لماذا لم يعتقلوك أنت أيضًا؟ فقد غادرت بعد اعتقالهم.

أجاب بن علي:

- نخوة.

جواب بن علي صدم الجميع فصرخ أحد أقارب بن علي:

- لن يتركوك حرًا طليقًا، إلا إذا كنت متعاونًا معهم وتبلغ عن منافسيك.
- كيف يتركونك نخوة؟ سأله العاقل وانتظر الجميع رد بن علي.
- كان معي ابني علي، حين أتت الحملة الأمنية. كنت قد أخذته لإجراء عملية استئصال اللوزتين، والاعتناء به عندي، وحين لاحظ أحد الجنود الطفل مرعوبًا اقترح علىٰ رفاقه تركي قائلًا لهم: ما ذنب طفل عمره سبع سنوات، أذا أخذنا والده سوف يجن. فتعاطفوا معي وتركوني.

لم يصدق أحد رواية بن علي التي عززها بالأيمان المغلظة، مؤكد أن لا ذنب له فيما جرىٰ.

- أقترح يا عاقل أن نطلب منهم أن يثبتوا علىٰ بن علي، بدلًا من مطالبات بن علي بإثبات العكس.

طرح محمد هذا المقترح فخف الضغط علىٰ رأس بن علي لكنه أخبره منفردًا:

- إذا كنت تعتقد أنهم لن يستطيعوا إثبات وجود بلاغ فأنت مخطئ. أضاف متهكمًا: استعد لشراء سبعة وسبعين ثورًا يا بن علي.

عقب اجتياح الحوثيين للجوف، شمال شرق البلاد، واستمرار تهاوي المناطق التي تسيطر عليها قوات هادي، قامت الشرعية بمراجعة كاملة لخططها الأمنية والعسكرية في تعز، وكان من نتائج هذه المراجعة اعتقال البعض كإجراء أمني وقائي. بهذا اتضحت براءة بن علي.

❊ ❊ ❊

١٥

حين وجد علوي مستلقيًا في الغرفة، سأله محمد:

- لماذا لا تُحمِّل معهم؟ إنهم يحملون قاطرة كبيرة.
- لن أزاحم الأطفال في عملهم.

أصبحت الزوامل هي الزاد الرئيسي لعلوي، وقد لاحظ محمد كثرة تكراره لسماع زامل "الناجي الوحيد". يضع علوي الهاتف ملاصقًا لأذنه حين يستمع إلىٰ هذا الزامل، الذي يدعو إلىٰ قيام الحرب العالمية الثالثة، أو ما وصفه بالصراع الكوني المبيد، الذي يستخدم فيه البشر أسلحة تقضي علىٰ كل بني آدم، ولن يبقىٰ هناك ناجٍ وحيد، كما يتبادر إلىٰ الذهن عند سماع اسم الزامل، بل إن آخر لغم أرضي سيقضي علىٰ آخر إنسان.

حين لاحظ ناجي شروده قال لهم:

- أعتقد أن علوي يريد الذهاب إلىٰ الجبهة.

رد عليه صالح:

- لا قدَّر الله.. لن نسمح له بأن يقتل وهو لم يرَ ابنه بعد، علىٰ الأقل ينتظر حتىٰ تلد زوجته.

كان علوي شارد الذهن ولم يعلق بكلمة. نكزه محمد بصوت مرتفع:

- علوي...ما بك؟ صل علىٰ النبي.
- اللهم صل وسلم عليه. أنا ضابح ولا أريد أحدًا أن يتكلم معي.

حين قام الجميع للعمل في الساعة الثانية بعد الظهر، بقي علوي ومحمد في الغرفة لوحدهما.

- لا تذهب مع الحوثيين يا علوي، نصيحة مني، لا تفجع والدتك.
- لماذا؟ ما بهم الحوثيين؟ أنت بنفسك قد ذهبت معهم في بداية الحرب.

شعر محمد بوخز شديد في جسده، لا تنه عن خُلقٍ وتأتي بمثله، هذا هو ما يقصده علوي وإن لم يقله. فأجاب إجابة سطحية تنم عن نفاق.

- لكنني تركتهم، حين عرفت حقيقتهم.
- قيل لو أنك بقيت معهم كنت قد أصبحت مشرفًا. هل هذا صحيح؟
- لو بقيت معهم لأصبحت صورة ملصقة علىٰ الجدار.

وأخذ يحدث علوي عن تجربته لتحذيره من الالتحاق بجبهات القتال. استشهد بأخطاء الحوثيين قائلًا: مثل ما تعرف، توقفت جميع

المحلات عن العمل في بداية الحرب، بما فيها محلنا، وأصبحنا جميعًا عاطلين عن العمل، مثلك الآن. ذهب إخوتي للبحث عن أعمال أخرىٰ مثل بقية أبناء القرية، رفضوا أن أذهب للعمل كوني الأخ الأكبر وطلبوا مني البقاء في البيت، بينما ذهبوا للعمل وسط حقول القات في القرىٰ المجاورة. الذين كنا نذهب لشراء القات منهم، أصبحنا نعمل لديهم بأجر يومي بسيط.

كان معظم الناس عاطلين عن العمل، وساخطين علىٰ السعودية التي تدمر بلادهم، ولا يفوت الحوثيون أية فرصة إلا ويحدثون الناس في محاولات للانضمام إليهم. في إحدىٰ المرات حضر حوثيون لإلقاء محاضرة في مجلس عزاء في القرية لم يدعهم إليه أحد. وقد اندهش الناشط الثقافي الذي ألقىٰ المحاضرة بتمسك أهل القرية بما أسماها هويتهم الإيمانية، حين رآهم يتلون سورة ياسين والصلاة الإبراهيمية بشكل جماعي. كنت قريبًا منه وتحدثت معه في مواضيع عدة. أخبرني أنني أصلح أن أكون مشرفًا ثقافيًا؛ كوني من أسرة مثقفة، حسب كلامه.

لم يُخفِ محمد تأثره بذلك الناشط الذي كوَّن معه صداقة، ولم يفصح له عن اسمه، بل اكتفىٰ بكنيته أبو عيسىٰ. قدَّر محمد، من خلال لكنة الرجل، أنه من منطقة آنس؛ فهُم يدغمون حرفي الياء والألف عند نطقهم عبارة "فلبيت" ويقصدون "في البيت".

اقترح أبو عيسىٰ علىٰ محمد إقامة دورة ثقافية في منزلهم يحضرها أبناء القرية، وحين أتىٰ مع مجموعة من الحوثيين، أكرم الحاج عبده ضيافتهم، لكنه اعتذر عن إقامة الدورة في منزله فاكتفىٰ الناشط بإلقاء محاضرة في المقيل ومحاضرة بعد العشاء. كان الحضور كبيرًا حتىٰ أن الديوان امتلأ عن آخره. ربما كان الفضول لمعرفة من هم هؤلاء الحوثيون! وماذا يقولون؟! هو ما دفع أكثر الناس للحضور فضلًا عن الفراغ؛ فأغلب الناس بدون عمل. كان محمد قد قام برحلات عدة مع هذا الناشط لم تتجاوز حدود المحافظة، لكنه كان يفاجأ بتضخيم الناس لدوره، وللمكانة التي أصبح يحظىٰ بها لدىٰ الحوثيين، كما يعتقد أهل القرية.

من أكثر من مصدر وليس من محمد وحده، تلقىٰ أبناء القرية خبر التحشيد العسكري لمواجهة العدوان السعودي الأمريكي، وفي ساحة الحشد فوجئ محمد بالعشرات من شباب القرية يسألونه. أين سيتم توجيههم، ومتىٰ سيقومون بتسليحهم، وغيرها من الأسئلة التي يعتقدون أنه يعرف إجاباتها، فكان يكتفي بطمأنتهم. كانت الذكرىٰ القريبة لقصف طيران التحالف لإحدىٰ ساحات التحشيد في منطقة حجانة تخيم علىٰ رأسه، في حين كان البقية من المنظمين والمحتشدين لا يفكرون في شيء. حين وجد معظم أبناء القرية قد اجتمعوا في حافلة واحدة طلب منهم أن

يتفرقوا في سيارات عدة، وأن يركبوا فوق السيارات المكشوفة، لم يخبرهم عن السبب. وحين أصروا علىٰ معرفته قال لهم: حتىٰ لا تحدث مجزرة كبيرة من قريتنا، ولكي تستطيعوا الفرار إذا كنتم فوق سيارات مكشوفة عند سماع صوت الطائرة. كان قلقًا وخائفًا من تحمل مسؤولية لا يدري كيف ألقيت علىٰ عاتقه.

لم يذهب محمد معهم. عرف فيما بعد أنه تم نقلهم إلىٰ محافظة أبين جنوب البلاد عن طريق محافظة البيضاء. كان المشرف الثقافي للمديرية قد عرَّفه بشخص آخر كان قد سمع عنه. أصبح أبو فتح البخيتي معروفًا بعد قيامه بالاستيلاء علىٰ سيارات إدارة أمن المديرية، بحجة احتياج جبهات القتال إلىٰ تلك الأطقم ذات الدفع الرباعي، التي ركب محمد فوق إحداها متجهًا إلىٰ مدينة زراجة.

كان المساء كئيبًا جدًا وبعض الجنود الحوثيين لا يزالون يمضغون القات داخل النادي الرياضي لمدينة زراجة. حين خرج لم يسمع إلا نباح الكلاب، قبل أن يطلبه رئيس المقر الجديد للحركة لمقابلته بعد فراغه من أعماله. رحب به بحرارة، وأكد له أن زملاءه سيأتون في الغد، وأخذ يعتذر عن أي تقصير. في الصباح استغرب محمد من الحركة التي تدب في النادي، إذ قاموا بالتخلص من الفراش القذر، وتنظيف الأرضية وغسلها، تجهيزات كهربائية وصوتية، شاحنة متوسطة تفرغ حمولتها من

المواد التموينية، وشاحنة أخرىٰ تحضر فرشًا جديدًا وبطانيات جديدة، وشباب من مختلف الأعمار يصلون تباعًا حتىٰ بلغ عددهم عشرين شخصًا.

أخبرهم رئيس المقر أنهم لن يستطيعوا المغادرة إلا بعد انتهاء الدورة، وأن عليهم تسليم هواتفهم إلىٰ يده، ففعلوا جميعًا. أضاف: مثلما أكرمنا الله جميعًا بالسيد حسين، وبهذه المسيرة، أكرمكم الله بأحد تلاميذ السيد حسين وبهذه الدورة.. أنتم محظوظون، وتستحقون ذلك.. فاحمدوا الله علىٰ هذه النعمة الجليلة وحافظوا عليها.

علىٰ عكس معظم الحوثيين لم يكن أبو زيد نحيفًا. بدا بدينًا وهو ينزل من سيارة فارهة أوصلته إلىٰ مقر الدورة. يبدو أنه من صنعاء وليس من صعدة.. فمتىٰ تتلمذ علىٰ يد السيد حسين! قالها محمد لنفسه، وهو يصافح يدًا كبيرة يغطي ظهرها شعرًا كثيفًا ولكنها نظيفة وغير خشنة، ورئيس المقر يقدمهم له واحدًا واحدًا.

كان محمد محقًا في توقعه، فقد أخبرهم أبو زيد أنه من صنعاء القديمة.

- ومتىٰ قابلت السيد حسين؟

أوضح لهم أبو زيد خلال الدورة أن الرئيس علي عبد الله صالح، أرسل وفدًا من علماء الجامع الكبير في صنعاء، وكان أبو زيد علىٰ وشك

التخرج منه بالإجازة الشرعية التي يمنحها الجامع الكبير وفق منهجه التعليمي، فأكرمه الله بالذهاب مع ذلك الوفد إلىٰ صعدة، لمقابلة السيد حسين من أجل مراجعته عن موقفه، كما طلب منهم الرئيس صالح. وهناك اكتشف مدىٰ جهله، وعدم جدوىٰ التعليم الذي تلقاه في صنعاء، بعد معرفته بالسيد حسين، الذي عجز ذلك الوفد عن إقناعه بل إنهم تأثروا به تأثرًا كبيرًا. فعاد بعض أفراد الوفد إلىٰ صنعاء وبعضهم لم يعد.

اكتشف محمد أن جميع زملائه ينتمون إلىٰ سلالة واحدة وإن أتوا من قرىٰ مختلفة. كان هو القبيلي الوحيد بين الهاشميين في تلك الدورة، لكنه لم يلمس تمييزًا في المعاملة، أو تفضيلًا لهم في شيء علىٰ غير عادتهم. كان الطباخ أبو حمزة يقوم بإعداد الطعام ويدعوهم إلىٰ مائدة جاهزة لتناول طعام الفطور بعد إكمالهم التسبيح، الذي سبقته صلاة الفجر وقبلها درس تلاوة القرآن، وقبلها برنامج الاستغفار. ما أن يكملوا تناول الطعام حتىٰ يسمح لهم بالعودة إلىٰ الفراش منهكين. في العاشرة صباحًا يتم إيقاظهم لتدارس الوضع بمنطلق عينٍ علىٰ القرآن وعين علىٰ الأحداث، ولا يتناولون طعام الغداء إلا بعد أداء صلاتي الظهر والعصر معًا. يقوم رئيس المقر بتوزيع القات عليهم بالتساوي، كما يقوم الأستاذ أبو زيد بتوزيع اهتمامه ولفتاته عليهم بالتساوي أيضًا ومنحهم الفرصة أثناء تمارين الوعظ والخطابة التي يتدربون عليها. كان وقت المقيل

حافلًا بالدروس حتىٰ مغيب الشمس. تسبيح وصلاة المغرب، درس في تلاوة القرآن ثم صلاة العشاء، قات جديد ومقيل جديد، نشرة أخبار الثامنة والنصف، أفلام وثائقية، أفلام سينمائية إنتاج ايراني قديم، ومدبلجة إلىٰ اللغة العربية. محاضرات الشهيد القائد، ومحاضرات للسيد القائد. رقصة برع علىٰ أنغام الزوامل الحماسية بعد كل وجبة غداء يخوضونها.

قام أحد الزملاء في الدورة بطرح سؤال:

- لماذا مشاهد الأفلام الإيرانية؟
- رد أبو زيد ببرود شديد: لأنه لا توجد أفلام عربية تتحدث عن حق أهل البيت ومأساتهم.

مُنح كل مشارك مصحفًا، مكتوب علىٰ أغلفتها أنها طبعت في إيران. قام محمد بتقليب صفحات مصحفه عله يجد اختلافًا. لم يكن يحفظ القرآن وما من مصحف طبع في السعودية حتىٰ يقارن بينهما. وجد في آخره صفحة تنسبه إلىٰ رواية حفص عن عاصم، وتراخيص طبع من الجامع الأزهر في مصر، ومن وزارة الأوقاف في سورية. مادام الأزهر وافق علىٰ طبعه فلا مشكلة، قال في نفسه. وحين طلب من رئيس المقر مصحفًا اعتذر بشدة لأنها من مستلزمات المقر ويحتاج إليها وقت إقامة

الدورات الثقافية وأضاف أنه لا يستطيع التفريط فيها إلا حين تأتيه دفعة مصاحف جديدة. حينها سأعطيك واحدًا منها. قال لمحمد.

عشرة أيام مرت نسي محمد فيها أن زوجته في شهرها التاسع، وينتظر مولوده الأول بعد طول انتظار. كان الأهل في أشقىٰ مضيق؛ يتصل والده بمشرف المديرية فيخبره أن محمدًا يتلقىٰ دورة ثقافية في صنعاء، لكن أهالي القرية كانوا يبالغون في أحاديثهم عن السحر الذي يصنعه الحوثيون لمن ذهب معهم. يقولون إن من يلتحق بهم ينسىٰ أهله ويبقىٰ يقاتل معهم إلىٰ أن يُقتل ويحضروه إلىٰ أهله في صندوق. ثم إن الحوثيين لا يدفنونه في الصندوق، الذي صُنع محليًا صناعة رديئة؛ نظرًا لاحتياجهم إلىٰ تلك الصناديق بسبب كثرة القتلىٰ في صفوفهم.

كادت أمه تجن. وعند انتهاء الدورة، كان رئيس المقر والأستاذ أبو زيد، يناديان كل واحد ليذهب إليهم، وقد جلسا في غرفة منفردة، بعيدًا عنهم. كان كل واحد يرجع مبتسمًا، ويحمل بعض الملازم في يده، قام محمد مسرعًا حين سمع اسم أبو عبده. وجدهم يقومون بتسجيل الجميع في كشف، الاسم الرباعي، والكنية، والحالة الاجتماعية، ورقم الهاتف المحمول، ربما هذا كشف بالمرتبات! قال لنفسه، إلا أن أبو زيد لم يدعه يكمل توقعاته عن المبلغ حين قال:

- يوجد دار للقرآن في قريتكم أليس كذلك؟

- نعم يوجد، لكن نشاطه قليل وغير مؤثر.
- إذن مهمتك ستكون صعبة.

وقد كانت بالفعل؛ إذ أعطاه كرتونًا ممتلئًا بالملازم، علىٰ عكس بقية المشاركين، الذين استلموا عشر ملازم لكل فرد.

حاصرت الأسئلة محمدًا من جميع الجهات، هل صرفوا لك سلاحًا؟ هل يعطون مرتبات؟ ولماذا لم تذهب إلىٰ جبهات القتال مثل البقية؟

بعد أيام قليلة، عاد شخصان ممن ذهبوا إلىٰ أبيَن، أخذا يكيلان الشتائم واللعنات للحوثيين: تركونا بدون أكل وبدون ماء.. لم يُسلِّحونا ولم يصرفوا لنا أرقامًا عسكرية كما وعدونا..

كان الارتباك، والعجز عن إدارة الموارد البشرية هي ما لاحظه محمد في الحوثيين، خاصة عند بداية الغارات الجوية السعودية، ولكنهم استعادوا زمام المبادرة فيما بعد، بعد أن فقد أبناء قرية البردون الثقة فيهم.

البقية عادوا تباعًا، معظمهم يلقون اللوم علىٰ محمد، بالرغم من أنه لم يقم بدعوة أحد. كانوا يعتقدون أنه قد وجد وظيفة لدىٰ الحوثيين، في حين لم يجدوا هم شيئًا.

فكر محمد أنه سيكون مختلفًا عن بقية أبناء القرية إن هو بقي مع الحوثيين، فرغم وجودها في العمق الزيدي، إلا أن الحركة الحوثية لم تحظ بشعبية في قرية البردون.

- لدينا أعمال تشغلنا عن الذهاب للقتال معهم. هكذا يبرر البعض.

لكن سؤالًا آخر يطرح نفسه.

- وهل كل من في المناطق الأخرىٰ عاطل عن العمل؟!

لا يعرف محمد لماذا ترك العمل مع الحوثيين؟ هل هو محصن ثقافيًا كما يعتقد، أم أنه الخوف من أن يكون نشازًا بين أبناء قريته؟

أم أن الناس عادوا إلىٰ أعمالهم بعد أن تكيفوا مع الحرب، فعاد هو مثلهم إلىٰ عمله، طلبًا للرزق، وسعيًا لإعالة أسرته.

في الصباح الباكر أيقظهم صوت سيارة توقفت أمام الغرفة، وحين فتح محمد الباب شاهد شخصًا طويل القامة حتىٰ أن رأسه يكاد يلتصق بسقف السيارة وعلىٰ وجهه ابتسامة رضىٰ وهو يلقي علىٰ محمد التحية:

- صباح الخير.
- صباح الخير والعافية.
- اين علوي ابن جدي؟

- راقد في الغرفة إلىٰ جوار العيال.
- أيقظه وقل له يلحق بي ليشتغل.

هذه الطريقة وحدها، كفيلة بالحفاظ علىٰ علوي وإقناعه، وليست المواعظ والتحذيرات. يعرف محمد ذلك عن تجربة مريرة. لم يستطع أن يقنع عمه محمد الجرادي بعدم الذهاب إلىٰ الحصبة، للدفاع عما كان يعتقده عمه بالشرعية الدستورية للرئيس علي عبد الله صالح، ولأنه لم يستطع توفير فرصة عمل له في المنشار حين توقفت الأعمال في تلك المرحلة من بداية أزمة الربيع العربي، وجد عمه والكثيرون مثله فرصة عمل لدىٰ الرئيس صالح. وبالرغم من عودة العم محمد الجرادي مكرمًا في تابوت أحمر فاخر، دفنه فيه، مع الصور والملصقات، التي تؤكد بطولته واستشهاده، إلا أن الشعور بالذنب، والإحساس بتحمل المسؤولية لا تنفك عن مطاردته. **حين لا يجد الناس عملًا فإنهم يذهبون للدفاع عن معتقداتهم، أما إذا وجدوا عملًا يشغلهم فإنهم يتركون تلك المعتقدات تواجه مصيرها بنفسها**. هذا ما لمسه محمد حين وجد علوي في المساء يبحث عن الحلقة الجديدة من مسلسل "عثمان".

❋ ❋ ❋

١٦

ليس في وقت استراحة الظهيرة، وجلسات مقيل بعد العشاء فقط، بل حتىٰ أثناء ساعات العمل، في تعز، ظل الجمراني يحدث الإخوة عن ذكرياته مع المرحوم العم محمد الجرادي في فترة عملهما مع والدهم في عدن قبل نحو عشرين سنة، وانتقالهما معه إلىٰ صنعاء أثناء انشغاله بقضية الإرث في المحكمة. حين لاحظ محمد انجذاب إخوته إلىٰ حديث الجمراني عن إرثهم المفقود وثروتهم المسلوبة، تدخل حتىٰ لا يكون الجمراني هو المصدر الوحيد للمعلومات التي يتعطش إخوته إلىٰ معرفتها. قال الجمراني لو أن الحاج عبده استمع إلىٰ نصائحه كان سيكسب القضية في المحكمة ولكانوا اليوم أثرياء.

بادر محمد إلىٰ إحراجه ليتوقف ولو قليلًا عن الحديث في هذا الجانب فقال له:

- لكن أنت شهدت ضده في المحكمة لصالح عماتي في نهاية الأمر، ونسيت العيش والملح.

لم يتأثر الجمراني، وأكد أن كل جهوده كانت تنصب في الإصلاح بين الحاج عبده وأختيه، وأنه شهد ضد الحاج عبده بعد مشاهدتهما تصرخان وتبكيان أمام المحكمة في تصرف مهين للعائلة، ومخجل للقبيلة بأكملها، فحاول لملمة الموضوع وإقناعهما بالعودة إلىٰ البيت.

والحقيقة التي يعرفها الإخوة وسمعوها من والدهم وعمتيهم، ومعظم أبناء القرية أن لهم جدًا ثريًا للغاية. كان هذا الجد قد سافر إلى العراق وسورية والكثير من الدول، وشارك في الكثير من المسابقات الأدبية وحصد المراكز الأولى، ونال الجوائز الذهبية، كما أكد ذلك الحاج صالح سعد، زميل طفولته والذي زاره في منزله بصنعاء مرات عدة، وأخبر كل من حدثه من نظرائهم عن ميداليات ذهبية وأقلام ذهبية والكثير من الذهب الذي يكدسه زميل طفولتهم الذي حالفه الحظ وأصبح شاعرًا شهيرًا رغم فقده لبصره. وكثيرًا ما تمنى أولئك الرجال المسنون لو أنهم فقدوا بصرهم مثله، حيث إنهم لم يصنعوا شيئًا نافعًا وهم مبصرون، ولكن هذا الجد كان بخيلًا تجاه عائلته، حسب كلام أفراد هذه العائلة نفسها. يعرف محمد معلومات أكثر من إخوته عن جدهم الذي عاش في صنعاء وتوفي فيها، واشتعلت بعد وفاته معركة قانونية بين أرملته فتحية الجرافي، ووالده من جانب، وبين والده وعمتيه من جانب آخر. كان محمد قد سمع بثروة هذا الجد في صغره وسمع عن بخله أيضًا، فحين عادت العمة ظبية من صنعاء كانت تكيل اللعنات لعمها الذي مكثت في بيته لمدة شهرين. صحيح أن إدارة المستشفى العسكري عالجتها بالمجان وصرفت لها الأدوية اللازمة دون أن تخسر هي وزوجها شيئًا حين عرفوا في المستشفى أنهما من أقاربه، وأن زوجته

كانت في غاية اللطف تجاههما، إلا أنه لم يعطها إلا عشرة آلاف ريال وقت سفرها. هذا ما أخبرته بهم عمتهم ظبية مرارًا وتكرارًا، وأضافت أنها شعرت بالقهر والغبن الشديدين ما دفعها لكتابة قصيدة تهجوه فيها جعلت علي ناصر زوج أختها قدرية يقول: يستاهل ذلك الكلب الأعمىٰ الذي لم يلتفت يومًا إلىٰ أسرته. العمة قدرية هي الأخرىٰ كانت تكن حقدًا شديدًا لعمها وربما هي أيضًا قد لمست بخله.

محمد هو الوحيد الذي يعتقد أن جدهم ليس بخيلًا. ارتسمت في ذهنه صفة كرم جده نحوهم منذ الزيارة الأولىٰ مع والده ورفقة أخيه أحمد في أيام أحد أعياد الأضحىٰ. كانت مظاهر الثراء التي تحدث عنها الأهل واضحة، وقد رصدتها عينا الطفل من الوهلة الأولىٰ مقارنة مع ما ألفه في القرية: جرس كهربائي، باب يفتح بضغطة زر من الطابق الثاني، حديقة منسقة في حوش المنزل، درج مغطىٰ بالسجاد.

في صالة الطابق الثاني، استقبلهم ذلك الجد بضحكة مجلجلة حين قال لهم والدهم: سلموا علىٰ جدكم. أمسك برأسيهما بكفيه الكبيرتين وضمهما إلىٰ جانبي بطنه، وأخذ يفرك وجهيهما، ربما هذه طريقته في مصافحة الأطفال كونه كفيفًا. اعتقد الطفل محمد ذلك، وقبل جلوسهما سألهما عن صحة جدهما الذي في القرية دون أن يخبرهما أنه أخوه، لكنه أخبرهما أنه كان يضربه حين كان صغيرًا، وحين أخبرا جدهما أحمد

السوسي بحكاية ضربه من جدهم الكفيف قهقه ضاحكًا وقال: عبد الله أخي لُغجة (مشاكس).

مغمض العينين، كبير الأنف، تظهر أسنانه المتسخة من أثر تعاطيه الشمة (السعوط) أثناء ضحكه الذي لا يتوقف. ليس هذا ما لفت انتباه الطفل محمد في جده، بل منزله الأنيق الذي ظل يتأمله. كان علىٰ عكس منزل القرية الذي تحمل سقفه الأخشاب. لهذا المنزل سقف أملس وتزين زواياه الزخارف، وتوجد الكثير من الصور في جدرانه، أكثرها دهشة تلك التي توجد فيها فتيات عاريات. لم يصدق أحدٌ من أترابه أنه توجد صورة بهذا الشكل حين أخبرهم محمد بعد عودته إلىٰ القرية. طلب منهما الجد أخذ إبريق العصير وطبق الأكواب وإعادتها إلىٰ المطبخ، الذي أشار لهما باتجاهه ووضح لهما والدهما طريقه. حين وصل محمد إلىٰ باب المطبخ شاهد سيدة عجوزًا تجلس علىٰ كرسي خشبي، ضامة ساقيها، وترتدي جلبابًا أنيقًا له لون فضي أكمامه طويلة ويصل طوله إلىٰ الأرض، وتغطي رأسها بحجاب أبيض اللون وتضع يديها علىٰ حجرها بطريقة متعاكسة، وإلىٰ جوارها شابة بيضاء تقوم بعمل ما في المطبخ. رغم أن الشابة ترتدي تنورة قصيرة إلا أنها ترتدي سروالًا أصفرَ يغطي ساقيها النحيلتين، وتضع المريلة، علىٰ صدرها، وتغطي رأسها بمنديل تعقد أطرافه في مؤخرة رأسها.

كانت العجوز علىٰ عكس عجائز القرية، اللواتي يصرخن في وجوه الأطفال كلما ظهروا أمامهن، طالبات من الجن أخذهم إلىٰ "خلف الشمس بخمس"؛ ربما خمس سنين ضوئية! يضعن علىٰ رؤوسهن النقبة المتسخة من كثرة السليط الذي يقمن بصبه علىٰ شعرهن كل مساء، وقد فقدن أسنانهن جراء مزاحمتهن لهم علىٰ قرط الجهيش وقضم اللعاص في علان. ما أن شعرت بهما تلك السيدة ذات الوجه الضامر حتىٰ تبسمت في وجهيهما لتبدو أسنانها بيضاء. تلك الأسنان طويلة قليلًا ولكنها ناصعة ومكتملة.

دعتهما السيدة العجوز إلىٰ الاقتراب، وطلبت من الفتاه أخذ ما بأيديهما، وحين اقتربا منها سألتهما عن أسميهما: أحمد ومحمد. "عاشت الأسامي" هكذا علقت، وقامت من مكانها وطلبت منهما اللحاق بها، فتبعاها وهي تمضي بخطوات واهنة إلىٰ إحدىٰ غرف المنزل. قامت بفتح دولاب ووضعت كمية من حلوىٰ مكعبات الشوكولاتة والزبيب والمكسرات في كيسين من الورق، وأعطت كل واحد منهما كيسًا. كانا قد أكلا الكثير من جِعالة (حلوىٰ) العيد في القرية: الفشار والشكليت المعسل، لكن هذه الجعالة مختلفة شكلًا ومضمونًا عن جعالة القرية، مما عزز فكرة الثراء في ذهن الطفل. وحين عادا إلىٰ المجلس، حيث يجلس والدهما، ناولهما جدهما خمسة آلاف ريال لكل

واحد منهما، مما نسف صفة البخل التي يلصقها الأهل بهذا الجد الكريم. عند خروجهما من المنزل شاهدا رجلًا قصيرًا أسمر اللون أفطس الأنف، دميم المظهر تشوه مشيته عرجة. سأل محمد والده: من يكون هذا الرجل؟ فأخبره أن هذا هو السائق الخاص بجدهما. واستفسر عن الفتاة التي كانت في المطبخ، معتقدًا أنها ابنة جده، فقال له والده إن جده لم ينجب أبناء أو بنات وأن تلك الفتاة هي الخادمة. منزل جميل جدا، وجعالة عيد فاخرة، وسائق خاص وخادمة.. يا الله كم هذا الجد ثري! وعشرة آلاف ريال لطفلين، إلا أنها لم تعجب والدهما علىٰ ما يبدو فأخذ يتفحصها: فئة خمس مئة ريال جديدة ربما صرفوا له المرتب من هذه العملة! أو أنها من عائدات طباعة الكتب! هكذا علق، ولم يفهم محمد قصده حينها. أخبرهما والدهما أن لجدهما بيتًا قديمًا آخر يقع في صنعاء القديمة، غير هذا المنزل الحديث الذي يقع في حي راقٍ من أحياء شارع الستين. يحتوي المنزل القديم علىٰ مكتبة ضخمة لا تقدر بثمن. قال الوالد، وفكر الطفل: تُرىٰ كم تساوي من المال!

الزيارة الثانية والأخيرة لمحمد بصحبة والده كانت في صيف عام ١٩٩٩. كان محمد يقضي العطلة الصيفية في محل والده في عدن، حين تلقىٰ والده اتصالًا يخبره بوفاة عمه، فتوجه مباشرة إلىٰ صنعاء، وحين وصولهما وجدا الباب مفتوحًا والمنزل يعج بالناس. كانت السيدة

العجوز تتلقىٰ التعازي، بالطريقة نفسها في الجلوس، وبالملابس نفسها تقريبًا أو لعلها مثلها، الفارق الوحيد أنها لم تبتسم، بل كانت تبدو حزينة، وتمسك بمنديل أبيض في يدها، ربما لتجفيف الدموع.

لاحظ محمد أن والده مزهو ببرقيات التعازي التي تصل تباعًا من قيادة الدولة ومن عدد من المنظمات الثقافية المحلية والعربية، التي وجهتها إليه شخصيًا، ومن خلاله إلىٰ بقية أفراد الأسرة. أخبر محمد أنهم الورثة الحقيقيون للراحل، وأن ممتلكاته ستصبح ملكًا لهم، فهم الأحق بهذه الثروة، فهو جدهم، ولم تمض أشهر قليلة حتىٰ عرف محمد أن والده قد اختلف مع أرملة جده حول الإرث وأنهم قد توجهوا إلىٰ المحكمة لتفصل بينهم. عيَّن الحاج عبده مشرفين علىٰ أعماله في عدن، ومكث في صنعاء ليتفرغ لقضية الإرث وجني الثروة التي يعتقد أن تحصيلها بات أقرب من أي وقت مضىٰ. كانت اتصالات العم محمد الجرادي لا تتوقف من عدن تخبره عن فساد الشركاء والمشرفين ولصوصيتهم، وعدم حرصهم علىٰ المحلات، وكان الحاج عبده يرفض تدخلاته. هذا ما أخبر به العم محمد الجرادي محمدًا لاحقًا. وحين وجد الحاج عبده أن التحويلات المالية من محلاته في عدن قد وصلت إلىٰ الصفر قام بعمل توكيل قانوني لشريكه علي مصلح بتصفية كل محلاته في عدن والإبقاء علىٰ الشراكة في المحل الذي يديره علي مصلح فقط. لم

يستطع الحاج عبده الذهاب إلىٰ عدن بسبب انشغاله في صنعاء. كان كثير التحدث عن نظرية المؤامرة، فقد أخبر محمد أن هناك مؤامرات ضدهم، تهدف إلىٰ إفقارهم، ولمواجهة شبح الإفلاس افتتح محلًا له في صنعاء. في تلك الفترة أصبح الجمراني تابعًا شريرًا لخاله عبده، وقبل أن تطردهما الشرطة بأمر قهري من المحكمة العليا التي أصدرت شعبة الأحوال الشخصية فيها حكمًا قضائيًا بملكية الزوجة للمنزل الحديث، تولىٰ الجمراني مع العم محمد الجرادي حراسة منزل الراحل حتىٰ لا تسرق أرملته الممتلكات كما اعتقدا. لكنها كانت قد تصرفت تصرفًا حكيمًا بتسليمها للكتب التي لم يتمكن الراحل من طباعتها قبل وفاته إلىٰ كاتبه ورفيق دربه الأستاذ محمد الشاطبي للاحتفاظ بها عنده، وسلمت كذلك الأوسمة والجوائز التي حصل عليها إلىٰ وزارة الثقافة، هذا ما عرفه محمد لاحقًا حين قرأ مقابلة معها أجرتها مجلة الأسرة اليمنية.

كلَّف الحاج عبده الجمراني والجرادي لحراسة المنزل وكثيرًا ما اختلفا وتشاجرا وهما لوحدهما في المنزل الذي عبثا بمحتوياته، وربما سرقا أشياءً منه لبيعها، حين كان يتأخر الحاج عبده عن الدفع لهما، وقد وجه إليهما هذه التهمة صراحة، مما دفع العم محمد الجرادي لتركه، وقد شكا لمحمد سوء ثقة والده فيه رغم حرصه هو علىٰ أموال أخيه. الجمراني هو الآخر ترك الحاج عبده، وذهب للشهادة ضده لصالح

شقيقتيه ظبية وقدرية اللتين حضرتا إلىٰ المحكمة، وطالبتا بنصيبهما من الإرث بعد وفاة والدهما الحاج أحمد السوسي شقيق المورث. اختلط الحابل بالنابل علىٰ الحاج عبده، حتىٰ أبناء أختي المورث الراحل يطالبونه بحصتهم، في حين هو لم يحصل علىٰ شيء بعد، وظل يتحدث عن المؤامرة.

أخبرَ الحاج عبده ابنه محمد أنه سيتم نقله لدراسة المرحلة الثانوية في صنعاء ليساعده في إدارة المحل عند ذهابه إلىٰ المحكمة. بالفعل قام محمد بالتسجيل في مدرسة قريبة من محل والده. كان دخل ذلك المحل يكفي بالكاد لشراء الجرائد التي كان يقوم الحاج عبده بشرائها باستمرار، وكان يركز علىٰ شراء جرائد المعارضة التي يعتقد أنها تكتب عن عمه أكثر من الجرائد الحكومية، ولم يكن يشتري الجرائد الحكومية إلا في اليوم الذي يصدر معها ملحق ثقافي، معتقدًا أنها حين تكتب عن عمه سوف تتطرق إلىٰ قضية الورثة، وقد كانت تفعل أحيانًا فتقوم بلعنهم وشتمهم بطريقة أدبية لما قاموا به من فعل مشين تجاه شخصية مهمة وكبيرة بحجم الوطن. من خلال تلك الجرائد تعرف محمد علىٰ جده بطريقة مختلفة عن تعريف عائلته. كل من كتب عنه يتحدث فعلًا عن ثرائه، لكنه ثراء ثقافي وأدبي وفكري. كتب كثيرون عن كرمه وجوده وعطائه الباذخ تجاه وطنه وشعبه وأمته. وعرف محمد من خلال تلك

الجرائد أن الإرث ليس ملكًا لهم وحدهم، بل ملك للشعب كله والإنسانية. كانت معظم المقالات تتحدث عن الجوانب الفنية والإبداعية التي يتميز بها نتاج الأديب عبد الله البردوني، وتفرده بمدرسة شعرية خاصة، وتُعده من كبار شعراء وأدباء اللغة العربية. محاولًا اكتشاف سر جده كان محمد قد لجأ إلىٰ مصادر أسرية غير والده وعمتيه الذين يتصارعون علىٰ الثروة.

حين سأل جده أحمد السوسي كانت لديه أخبارٌ قديمة ملؤها الحزن والشجن والفقد لأخيه الذي غادر القرية قبل أكثر من ستين سنة ولم يعد إليها حتىٰ وفاته.

الله يرحمه، كان عنيدًا في صغره. هكذا بدأ الجد أحمد السوسي الحديث عن شقيقه الأصغر. أضاف: حين مرض وبدأ يضعف بصره كان أبي وأمي حزينين للغاية، وقد أبكت نخلة بنت أحمد عامر كل من سمعها في قاع الرحاب وهي تنتحب بمهيد حزين:

"والنبي لو دريت إن الكحل يجلي العين
لانزل أرض العدين، وادي لحيدي بقرشين"

كانت تبكر كل صباح قبل شروق الشمس لتجميع قطرات الندىٰ من أوراق الأشجار في الوادي، حيث كان يعتقد الناس أنها علاج مطهر

للعيون ولكنها لم تُجدِ نفعًا. ولأن المصائب لا تأتي فرادىٰ فقد مات الجمل سعدان الذي يساعد والدنا صالح عبد الله الشحف في حراثة الأرض، وقد حزن والدي وبكىٰ حتىٰ كاد يفقد بصره هو الآخر. في أحد مواسم الصراب مرت الشاعرة غزال المقدشية ووالدي يقوم بحصاد محصول القمح فخاطبته شعرًا، حيث امتدحت جودة القمح الذي تزداد كثافة خبزه عند إحماء التنور، ولم تطلب من نوعية هذا الخبز بل طلبت خبزًا جافًا ورشفة ماء تبل به ريقها حين قالت:

"يا صارب البر ذي يشبي متىٰ قد حمي
أو شي جحينة، وهسفة ماء فؤادي ظمي"

طلب منها والدي أن تقترب منه وأن تعذره فلم يعرفها إلا من خلال صوتها بسبب ضعف بصره وقلة الضوء في عينيه بعد المصائب التي حلت به حيث قال شعرًا:

"لا تستحي يا غزال الصيد ها واقدمي
لاما عرفتش فما صوتش عليا هُمي
ماعد معي غير نص الضاو شلو دمي
سعدان قد مات وعبد الله علينا عمي"

لاحظ محمد أن ما ذكره جده أحمد السوسي غير مدون في مقالات شقيقه عبد الله البردوني التي حوت مذكراته، ونشرها قبل وفاته في

صحيفة ٢٦ سبتمبر مما يدل علىٰ حساسية العلاقة بينه وبينهم، أو نسيانه لهذه الأحداث كونها حدثت وهو لايزال في سن مبكرة. حرص محمد علىٰ تدوين ما حدثه به جده أحمد السوسي قبل أن يرحل عن الدنيا بصمت ليلتقي بشقيقه تاركًا ابنه عبده وابنتيه ظبية وقدرية وشأنهم وثروتهم التي يلهثون خلفها.

اتجه محمد نحو والدته التي أخبرته أنها لم تكن تعرف عن هذا الجد شيئًا قبل زواجها من والده، لتكتشف أنه يرسل مبلغًا ماليًا كل شهر لوالده صالح عبد الله الشحف. كان هذا المبلغ مئة ريال في بداية السبعينيات، بعد زواجها، كما بحث محمد، ثم زاد تدريجيًا إلىٰ خمس مئة ريال، ثم انقطع بعد وفاة والده في منتصف الثمانينيات. كانت للريال اليمني قيمة نقدية مرتفعة في ذلك الوقت، فقد كان المبلغ الذي يرسله لوالده يحدث طفرة اقتصادية في ميزانية الأسرة، هذا ما استشفه محمد من حديث والدته التي تترحم علىٰ تلك الأيام بحسره شديدة.

وهو يحدثهم عن جدهم قاطعه أخوه أحمد قائلًا:

- أنت رسبت في مدرسة العلفي في صنعاء في تلك الفترة، أليس كذلك؟

هكذا خاطب الأخ أحمد أخاه محمد الذي يصحح لهم معلومات الجمراني.

- كنت سأرسب حتىٰ لو درست في السوربون.

رد محمد ولم يكن قد تحدث إلىٰ إخوته كثيرًا عن تلك المرحلة الموحشة من حياته، ولكن الأخ أحمد يبالغ في تعظيمه للدراسة في صنعاء، ولتلك المدرسة، سعيًا منه لإظهار فشل أخيه محمد دائمًا.

كانت مدرسة الشهيد العلفي هي المدرسة التي التحق بها محمد في صنعاء، أنشأها علىٰ حسابه الشخصي رجل الأعمال المحسوب علىٰ اليسار عبد الملك الأصبحي في الحي الذي يحمل اسمه. مدرسة قذرة وسيئة السمعة، بها العشرات من المدرسين الملتحين، يرتدون أطقم بدلات حديثة رغم بدانتهم وتكاد الكرافتات تخنقهم، كانوا لا يكفون عن تنظيم الاعتصامات والوقفات الاحتجاجية المساندة لفلسطين، وغزة علىٰ وجه الخصوص. صناديق التبرعات الزجاجية، التي أُلصقت إلىٰ جوارها صور الأشلاء التي قيل إنها لأطفال من غزة قتلهم الطيران الحربي الإسرائيلي، كانت موجودة دائمًا في تلك المدرسة.

كانت أسوأ أيام محمد حين يعود من المدرسة ليجد أن والده لم يعد من المحكمة، وحين يقوم بالاتصال به يجد أحد جنود الضبط القضائي يجيب عليه ليخبره أن القاضي قد أمر بحبس والده وأن عليه أن يحضر لوالده الغداء والقات إلىٰ سجن المحكمة، ليضطر في اليوم التالي إلىٰ التغيب عن المدرسة وعن المحل أيضًا، ليقوم بالمراجعة عن والده

ومطالبة القاضي بالإفراج عنه. وكثيرًا ما كان القضاة يبدون تعاطفهم مع ذلك الشاب الغر ولكنهم كانوا يحيلون موضوع والده إلىٰ مأمور الضبط القضائي، الذي كان صارمًا ووقحًا في طلب الرشوة حين يعجز محمد عن توفير الضمانات بعد رفض كل من يعرفهم في تقديم ضمان لحضور والده جلسات المحكمة بعد أن أصبح مدعىً عليه في حين كان في بداية الأمر مدعيًا.

كانت ملابس محمد التي يذهب بها إلىٰ المدرسة رثة للغاية وأصبحت قصيرة وغير مناسبة لنموه، وحين استطاع شراء ملابس مستخدمة من الحراج حرص علىٰ أن تكون واسعة وسميكة لتستمر معه أطول فترة ممكنة، ودون أن يطلب منه ذلك علق أحد زملائه علىٰ منظره بتلك الملابس بقوله: أنت تشبه الحرَّاثة.

لكن محمد اكتشف فائدة تلك البشاعة التي تميزه عن بقية الطلاب فقد اعتبرها درعًا أكثر من كونها ملابس.

علىٰ عكس ما شاهده في مدرسة الرافدين في القرية حيث خصصت المدرسة لطلاب الثانوية كراسي منفردة، ولطلاب المرحلتين الابتدائية والإعدادية كراسي مشتركة، يجلس كل أربعة أطفال علىٰ كرسي واحد. في مدرسة الشهيد العلفي توجد كراسي لصغار الطلاب. هذه النوعية من

الكراسي تستعمل في القرية لكل فصول المدرسة، وكان يعتقد أن هناك خطأ ما في توزيع الكراسي، حيث كانت كراسي مدرسة الرافدين واسعة في ذاكرته، ولم يعرف إلا حين عاد إلىٰ مدرسة القرية في إحدىٰ الدورات الانتخابية أن جسده قد كبر وأن حجم الكراسي صغير فعلًا مثل كراسي مدرسة الشهيد العلفي، فجميعها تصنعها مؤسسة واحدة. وبما أنه أمضىٰ ثلاث سنوات من حياته في مدرسة القبيلة جالسًا علىٰ الأرض نما فيها جسده نموًا كبيرًا، فلم تعد كراسي مدرسة الشهيد العلفي مناسبة لمن هم في مثل سنه، ولكن لم يعرف سبب عدم وجود كراسي منفردة لطلاب المرحلة الثانوية إلا حين عرف أنه تم تحويل المدرسة إلىٰ ثانوية بعد تغيير اسمها من مدرسة الأصبحي إلىٰ مدرسة الشهيد العلفي. لتصبح لائقة بالشهيد العلفي يجب أن تكون مدرسة أساسية وثانوية، في حين كانت في السابق مدرسة أساسية للطلاب الصغار، ولم تقم مؤسسة الأثاث المدرسي بصرف كراسي منفردة لها رغم مضي خمس سنوات علىٰ إعادة افتتاحها كمدرسة أساسية وثانوية.

كانت فصول مدرسة العلفي واسعة ولكنها مكتظة بالطلاب حيث تصطف أربعة مسارات للكراسي، مكونة من عشرة صفوف. مساران إلىٰ جانبي الجدار يجلس في كل كرسي أربعة طلاب واثنان آخران في الوسط يشكلان كرسيًا واحدًا يجلس فيه ثمانية طلاب، لتصبح الطاقة

الاستيعابية للكراسي مئة وستين طالبًا، كانت الفوضىٰ هي سيد الموقف، حيث لا يخضع الطلاب للترتيب الأبجدي لأسمائهم، بل للانتماء المناطقي، وقد انحشر محمد وسط طلاب، قاموا بدعوته للانضمام إليهم حين عرفوا أنه من منطقتهم، لكنه كان يحاول الانفتاح علىٰ بقية زملائه الذين انتظموا في جيتوهات مناطقية. حين دخل المدرسة لأول مرة كان لايزال يتحدث بلهجة قريته التي تتميز عن اللهجة السائدة في منطقة الحدأ التي تعتبر لهجتها فرعًا من اللهجة الصنعانية، ولكنه استطاع تعلم لهجة هجين يتحدث بها طلاب العاصمة فيما بينهم. لم يستغرب محمد من اجتماع الطلاب المنحدرين من محافظتي إب وتعز في تجمع واحد، فهذا أصبح مألوفًا حيث يتكتل الطلاب المنحدرون من مناطق خولان وسنحان، جنوب محافظة صنعاء، مع الطلاب المنحدرين من محافظة ذمار. كان يستطيع تمييز التركيبة السكانية للأحياء المحيطة بالمدرسة التي التحق بها، حيث يمثل أبناء تعز وإب أغلبية في تلك المدرسة، كان يوجد بين زملائه طلاب قلائل من المحافظات الجنوبية ومن تهامة، طالب واحد من لحج، واثنان من يافع وآخران من حضرموت وبضعة طلاب من تهامة، وبالندرة نفسها يتواجد طلاب من محافظات شمال وشرق صنعاء وقليلون من محافظات عمران وحجة ومأرب والجوف.

لاحظ إصرار أبناء تعز علىٰ كون لهجتهم هي الأقرب إلىٰ اللغة العربية الفصحىٰ. أخبره بذلك أحد زملائه من تلك المدينة، وقد أيد أكثر المدرسين وجهة النظر هذه. كان اهتمام المدرسين يتركز في تحذير الطلاب من الخطر الشيعي القادم من بلاد فارس، وكانت جولات الحروب بين الجيش والحوثيين قد بدأت في التوسع لتشمل كل مديريات محافظة صعدة، التي اعتبرها المدرسون في مدرسة الشهيد العلفي وكرًا للشيعة. بدلًا من الحديث عن ألبرت أينشتاين، ونيكولاس تيسلا، يحذرهم مدرس الفيزياء من الخميني، وحسين بدر الدين الحوثي، وحده الأستاذ جواد الغابري، مدرس مادة الفلسفة، كان يتحدث عن الأخلاق، ويذكر أفلاطون وابن رشد كونهما لهما علاقة بالمادة التي يُدرِّسُها.

الطلاب الذين يجلسون في أطراف الكراسي كانوا يضطرون إلىٰ إخراج أرجلهم ونصف أجسادهم أحيانًا؛ بسبب ضيق الكراسي، لكنهم ينكمشون كليًا حين يدخل الأستاذ الرياشي، مدرس مادة التربية الإسلامية. شعر الكثير من الطلاب بحركات مشينة يقوم بها عند مروره بين مسارات الكراسي. كان يقوم بالاصطدام متعمدًا بأجسادهم، بل ويقف ملتصقًا بأجساد الطلاب لفترة طويلة إذا كانوا من أصحاب الأجساد الرجراجة والغضة، وممن يرتدون ملابس أنيقة، وتفوح منهم

روائح العطور. يعرف الأستاذ الرياشي أنه لن يجرؤ أحد من هؤلاء الطلاب المساكين علىٰ إخبار والده بما يقوم به هذا الأستاذ؛ لأن والده سيقوم بقتله أولًا، وإذا تمكن من قتل الأستاذ ستقوم وزارة التربية والتعليم بتكريمه وتغيير اسم المدرسة إلىٰ مدرسة الشهيد الرياشي.

في أحد الأيام اشتبك الطالب هاني القوبري مع الأستاذ الرياشي بالأيدي. كان الأستاذ ممسكًا بالطاولتين المخصصتين للكتابة، تلك التي أمام هاني القوبري والتي خلفه، وملتصقًا بهاني من الخاصرة وينظر إلىٰ وجهه تارة وإلىٰ الكتاب الذي أمام هاني تارة أخرىٰ. كانت الحصة حول غزوة الخندق. قلل الأستاذ حميد الرياشي من دور الإمام علي بن أبي طالب، وأكد أن الروايات التي تتحدث عن بطولاته ضعيفة وغير صحيحة، ولما كان القوبري زيديًا متعصبًا فقد أنكر أقوال الأستاذ الذي اقترب منه ليناقشه. وبما أن هاني كان يجلس في طرف الكرسي فقد التصق به الأستاذ التصاقًا شديدًا. لا يعرف محمد ما إذا كان الاشتباك بين زميلهم والأستاذ غيرة علىٰ مكانة الإمام علي ودفاعًا عن بطولته، أم أنه يهدف إلىٰ منع الأستاذ من حفر خندق جديد في جسد هاني.

حادثة مرعبة حصلت في هذه المدرسة قبل خمس سنوات تسببت في تغيير اسم المدرسة من مدرسة الأصبحي إلىٰ مدرسة الشهيد العلفي، قبل التحاق محمد بها. هذا ما أخبره به أحد زملائه حين سأله محمد عن

الشخص الذي توجد صورته في الإدارة إلىٰ جوار صورة الرئيس علي عبد الله صالح؟

هو الأستاذ الشهيد محمد العلفي الذي قتل مع أربعة طلاب أبرياء علىٰ يد رجل هاجم المدرسة قبل سبع سنوات. أجاب الزميل.

- وهل فقد هذا الرجل عقله؟ سأله محمد.
- نعم فقد عقله بعد أن فقدت ابنته بكارتها في هذه المدرسة، فقام بقتلها وأتىٰ لقتل الأستاذ فأردىٰ أربعة طلاب إلىٰ جواره.

كغيره، كان محمد يعتقد أن المقصود بالشهيد العلفي هو البطل الوطني محمد محسن العلفي أحد الثلاثة الأبطال الذين أطلقوا النار علىٰ طاغية اليمن الإمام أحمد حميد الدين ملك المملكة اليمنية المتوكلية في مستشفىٰ الحديدية عام ١٩٦١ م في محاولة ثورية أدت إلىٰ إصابة الطاغية إصابات بالغة وساقت الثوار الثلاثة إلىٰ ساحة الإعدام، وقد سمي مستشفىٰ الحديدية باسمه تخليدًا لذكراه بعد قيام ثورة سبتمبر عام ١٩٦٢ م. صحح محمد معلوماته في الاسم حين رأىٰ صورة الشهيد العلفي المسخ، التي كتب تحتها أنها لوحة فنية قامت برسمها إحدىٰ تلميذاته بعد مقتله، وتبدو الميوعة واضحة علىٰ وجه ذلك الأستاذ بدلًا من البراءة التي أرادت الرسامة المبتدئة إظهارها. علىٰ عكس هذه الصورة الرخيصة كان كتاب تاريخ اليمن المعاصر يحوي صورًا لمعظم

الثوار بالأبيض والأسود. كان البعض منهم يرتدون بدلة عسكرية أو ما يعرف بالميري، والبعض الآخر يرتدون الزَّنة. كانت الكبرياء والعظمة، وملامح الرجولة والصرامة، هي القاسم المشترك في كل الصور.

حتىٰ لو لم يتآمر عليه علي عبد الله صالح، ويتسبب بإفلاسه، كان عبد الملك الأصبحي سينتحر حتمًا لو شاهد الحالة التي وصلت إليها مدرسته. هكذا عبر الأستاذ جواد الغابري مدرس مادة الفلسفة في مدرسة الشهيد العلفي.

كان الطلاب الذكور يدرسون في الفترة الصباحية، وتدرس الطالبات في الفترة المسائية، ورغم هذا التشدد تفشت الرذيلة، ما جعل محمد يحن إلىٰ مدرسة الرافدين بالقرية طوال الوقت. كانت الدراسة في مدرسة الرافدين مختلطة. يجتمع فيها طلاب وطالبات كل صف في فصل دراسي واحد. ولأن طراز المدرسة ريفي فإن فصولها أصغر من فصول مدارس المدن ذات الطراز الحضري كما يطلقون عليه. كان كل فصل يتسع لثلاثة مسارات من الكراسي، تجلس البنات في المسار الأوسط كباقة من الزهور، ويجلس الفتية في المسارين الجانبيين، كجناحين يحميان الفتيات. كان يفصل بينهم سياج سميك من الأخلاق الحميدة والقيم القبلية النبيلة. لم تكن البنات يشاركن في الطابور الصباحي في مدرسة الرافدين، لكن مدير المدرسة المنفتح، الأستاذ محمد اللصاء،

اقترح أن يدخلن إلى ساحة المدرسة ويقفن بانتظام وهن يسندن ظهورهن إلى الفصول المحيطة بالساحة بدلًا من جلوسهن في مجموعات عشوائية ينتظرن انتهاء الطابور. صحيح أن أعداد البنات في مدرسة الرافدين كانت في تناقص مستمر كلما تقدمن في الدراسة، حتى أن البعض منهن تزوجن وهن في الصف الخامس، إلا أن البعض منهن واصلن التعليم حتى المرحلة الثانوية والتحقن بالمعاهد الطبية حتى تخرجن قابلات متدربات أنقذن حياة العشرات من نساء القرية وأطفالهن أثناء الولادة. توقفت دفعات الخريجين من أبناء القرية بعد إغلاق المدرسة، ودائمًا ما كان محمد يتابع أخبار زملائه في مدرسة الرافدين ومصيرهم، وقد شعر بارتياح كبير حين عرف أنه لا يوجد بينهم من أكمل تعليمه الجامعي.

لم تكن مدرسة الرافدين في القرية تملك مكتبة، وكانت قراءات الطلاب تنحصر على ما هو مكتوب في المنهج المدرسي الذي كان متوفرًا ومكتملًا لكل الطلاب. أما مدرسة الشهيد العلفي فخصصت أحد الفصول ليكون مكتبة للمدرسة توجد بها عشرات الكتب التي لا تمت إلى المنهج المدرسي بأي صلة. وقد طاف محمد بتلك المكتبة كثيرًا. كان سيد قطب وابن تيمية هما الأكثر حضورًا فيها، ومحليًا تحتفي المكتبة بالشاعر والثائر محمد محمود الزبيري، حتى أن له صورة

مصحوبة بأبيات من شعره معلقة في تلك المكتبة إلىٰ جوار لوحات للخط العربي.

كان محمد كثير القراءة في فترة دراسته الثانوية في صنعاء خاصة للجرائد والمجلات الثقافية التي أثرت فيه وغيرت طريقة تفكيره أكثر مما أثرت فيه أسرته أو مدرسته. كان زبونًا رسميًا للكشك في حي الأصبحي أمام عمائر الراعي. كانت مبيعات الكشك تنحصر في الجرائد المحلية ومجلات الموضة والأزياء، وكذا مستلزمات الطلاب من الأقلام والقرطاسية. مع مرور الوقت والزيارات تكوَّنت صداقة بين محمد وصاحب الكشك صدام القرشي، وكان محمد أول من طلب منه أن يقوم بإحضار مجلة العربي الكويتية حين لم يجدها عنده. كان محمد قد قرأ عنها لأول مرة في الملحق الثقافي لصحيفة الثورة، حين شكر، ذلك الملحق، في صفحته الأخيرة تلك المجلة لقيامها بنشر ملف ثقافي شامل عن جده وقام بنشر صورة ذلك العدد الذي حمل غلافه صورة جده. أصبح محمد فيما بعد مدمنًا علىٰ شراء تلك المجلة حتىٰ تكدست لديه عشرات الأعداد منها في غرفة المحل، قبل أن يقوم بحرقها بعد مشادة كلامية مع والده الذي وبخه علىٰ عدم تركيزه علىٰ العمل وانشغاله بقراءة مجلة العربي. قام محمد بعملية انتحار ثقافي بإحراق مكتبته الصغيرة المكونة من أعداد مجلة العربي، وبعض إصدارات كتاب في جريدة،

وبعض الكتب التي كان يأخذها من مكتبة جده في منزله بصنعاء القديمة. بعد حرقه للكتب أخبر والده بإقلاعه عن القراءة نهائيًا، وأنه سيتفرغ للعمل، كما أخبره بعدم رغبته بالبقاء في صنعاء، وبضرورة العودة إلى عدن، وإعادة افتتاح محل هناك.

إجلالًا وتعظيمًا، لم يعد محمد يقول جدي عند حديثه عن عبد الله البردوني، بل قرر أن تكون علاقته به علاقة إنسانية صرفة، وهذا ما أزعج والده الذي لا يكف عن مطالبته بإلقاء قصائد جده في كل مقيل وأمام أي شخص يطلب منه ذلك؛ ليعرف الجميع أنهم الورثة الشرعيون للبردوني الشاعر كما يعتقد والده. كان محمد ينفذ ما يطلبه والده منه في بداية الأمر، لكنه غير رأيه حين أصبح يخجل من كونه من أقارب هذا الشاعر العبقري. قطع على نفسه عهدًا ألا يلقي بيت شعر واحدًا من قصائده في أي مكان. كان يشعر بحمل ثقيل ينوء به كاهله وبمسؤولية عظيمة على عاتقه، ولكنه تحلل من كل الالتزامات التي قيده والده بها وطالبه بتنفيذها.

شعر محمد بالارتياح الشديد بعد أن غير نمط تفكيره، ولكن لعنة القرابة ظلت تطارده في كل مكان يذهب إليه؛ فما أن يعرف أحدهم لقبه حتى يطالبه بقصيدة شعرية للبردوني، فينكر علاقته بالشعر وبالشاعر من الأساس. وكثيرًا ما كان يقع في مأزق حين يكون الشخص الذي يطلب

منه قصيدة متحكمًا في أمر ضروري كما فعل موظف إحدىٰ شركات الصرافة حين ذهب محمد لاستلام حوالة مالية. فبعد توقيعه علىٰ سند الاستلام رفع ذلك الموظف المبلغ بيده ورفض مناولة محمد قائلًا:

- لن أعطيك ريالًا واحدًا قبل أن تسمعني قصيدة يا بردوني.

لقد وقعت في الفخ. قال محمد لنفسه وهو يفرك شعر رأسه محتارًا كيف يخرج من هذه الورطة.

- هل هذا ضروري! رد عليه محمد.
- نعم وأريد قصيدة من روائع البردوني التي تنبأ فيها بالأحداث قبل وقوعها.

وكأنما اهتدىٰ إلىٰ مخرج، أظهر محمد الجدة والصرامة علىٰ وجهه وهو يقول: ما رأيك ببيت واحد، لكنه يحتوي علىٰ كل المعاني التي تريد سماعها.

- بيت واحد فقط!
- نعم ولكن هات الفلوس.

وما أن أخذ محمد المبلغ خاصته حتىٰ انتصبت قامته وأخذ نفسًا عميقًا شد انتباه رجل الصرافة الذي بدا فاغرًا فاهه ومحمد ينشد:

ووضع الندىٰ في موضع السيف بالعُلا
مُضر كوضع السيف في موضع الندىٰ.

غادر محمد شركة الصرافة سعيدًا بوفائه بالتزامه تجاه البردوني، أكثر من سعادته بأخذ المبلغ النقدي. لم يخبر الموظف الذي دخل في عوالم من الدهشة أن البيت الشعري للمتنبي وليس للبردوني. فقط تركه ونشوته.

❊ ❊ ❊

١٧

كان لتفجير المدمرة الأمريكية "يو إس إس كول"، أثناء تزودها بالوقود في ميناء عدن في أكتوبر عام ٢٠٠٠ م، نتائج كارثية علىٰ المدينة التي يفترض أن تكون العاصمة الاقتصادية والتجارية للبلاد. غادر أصحاب رؤوس الأموال عدن؛ خوفًا من الحرب، بعد أن أصبح التدخل العسكري الأمريكي في اليمن وشيكًا من أجل مكافحة الإرهاب. تضرر قطاع الإنشاءات تضررًا كبيرًا، وكان مُلاك محلات مناشير الأحجار من أبناء قرية البردون الموجودين في عدن ضمن من لفحتهم النار الأمريكية في تلك الفترة. توقفت الأعمال بشكل عام، وأصبحوا غارقين في ديون تراكمت عليهم إلىٰ أن عجزوا عن سدادها. منهم من استطاع تفكيك معداته والفرار بها ليلًا، ومنهم من فر ليلًا تاركًا معداته للدائنين. تدهورت أوضاعهم المادية والمعنوية وأصبحوا حديث مجالس القات في القرية. انطووا علىٰ أنفسهم حتىٰ أن أغلبهم لم يعودوا قادرين علىٰ الدخول إلىٰ مدينة ذمار حتىٰ لا تقوم السلطات الأمنية باعتقالهم بعد أن تلقت تعميمًا من إدارة أمن عدن. والأسوأ حظًا منهم تم نقله إلىٰ مستشفيات الرعاية النفسية والمصحات العقلية لتلقي العلاج اللازم بعد إصابتهم باضطرابات خطرة في السلوك.

لا يعرف معظم الناس سببًا لإفلاس كل هؤلاء الأشخاص، وبشكل جماعي. هذه ظاهرة غير مألوفة في مجتمع القرية، ولكنهم أوجدوا سببًا مقنعًا علىٰ أية حال. عزا الكثيرون ذلك إلىٰ عقوبة إلهية؛ جراء انحراف هؤلاء الأشخاص وتسيبهم في عدن، وإهمالهم لأعمالهم والذهاب إلىٰ المراقص والبارات التي فتحت علىٰ مصراعيها تشجيعًا للسياحة! كانت النساء الأكثر شماتة فيهم. أضفن الكثير مما لديهن إلىٰ سيرهم وأخبارهم المشينة، وكان التعميم طاغيًا. شملت تلك التهم الجميع دون استثناء، والحقيقة أن البعض كان يذهب ربما للترويح عن نفسه، والاستمتاع مع الغواني اللواتي جُلبن من كل أنحاء اليمن للعمل في فنادق عدن، لكن هذا ليس سببًا كافيًا لحصول تلك الكارثة.

وجد محمد والده في قائمة المنبوذين، الفارين من عدن بعد غرقهم بالديون لأصحاب الخمَّارات وبائعات الهوىٰ، كما يعتقد معظم الناس في القرية، وليس للمؤسسات والأفراد الذين يشترون منهم المواد الخام، والمعدات اللازمة لتشغيل المناشير. أصبح هؤلاء يبحثون عنهم ويسألون أصحاب المناشير في المحافظات الأخرىٰ. كان والده قد غادر عدن قبل تلك الجائحة، وهو في أفضل ظروفه الاقتصادية ووضعه المالي كان ممتازًا، وحين أحس بعدم جدارة المشرفين، الذين بدأوا في إغراق المحلات بالديون، بادر إلىٰ تصفيتها بشكل كامل، ولم يكن في ذمته أي

دين لا لمؤسسات ولا لأفراد. صحيح أنه لم يستطع الذهاب إلىٰ عدن، ولكن ذلك بسبب انشغاله بقضية الإرث في صنعاء، وكان يتم توقيفه في كثير من الأحيان، ولو كان عليه أي دين كان يستطيع المدين مطالبته. هذا في الجانب المادي علىٰ الأقل.

في صنعاء أصبح الحاج عبده غارقًا في مستنقع قضية الإرث، التي تشعبت واتسعت دائرتها بشكل كبير. أصبح للورثة الأصليين ورثة وورثة ورثة، وقد رفض الورثة الجدد عمل توكيل قانوني للحاج عبده كما فعل مورثوهم.

يئس محمد من إقناع والده بالتخلي عن وهمه بحصولهم علىٰ ثروة من هذا الإرث، الذي قضىٰ علىٰ كل ما كان في يديه من محلات كان من الممكن أن تصل به إلىٰ قمة الثراء لو استمر في عمله. ثم نجح في إقناعه أخيرًا بترك المطالبة بالميراث وانتظار ما تأتي به الأيام أو أن تأتي هذه الثروة إليه بنفسها إن هو ترك اللهاث خلفها، خاصة وقد فتح الجميع عيونهم وأفواههم، وعليه الانتظار أكثر حتىٰ يمل بقية الورثة الذين فُتحت شهيتهم سنة ٢٠٠٤م بعد أن قام وزير الثقافة خالد الرويشان بطباعة الأعمال الكاملة للبردوني ضمن مشروع صنعاء عاصمة للثقافة العربية، ومنحه الجزء المخصص للمؤلف من العائد المادي للورثة؛ كون حقوق الملكية الفكرية أصبحت لهم. لم يكن قد صدر حكم قضائي يفصل

بينهم ويحدد حصة كل فرد منهم، فقسمها الوزير الرويشان بطريقته الخاصة، وحين ذهبت إليه العمة ظبية والعمة قدرية شاكيتين من شقيقهما الحاج عبده الذي لم يعطهما شيئًا، صرف لهما وزير الثقافة مبلغًا من مخصصات الفعاليات الأخرىٰ التي أنفق عليها بسخاء منقطع النظير.

- لن يستطيعوا عمل شيء بدونك، أنت الوريث الرئيسي. الحكومة ستتصل بنا أولًا لو قررت شراء المنزل وتحويله إلىٰ متحف. هكذا أقنع محمد والده بصعوبة بالغة.

رأىٰ محمد ضرورة تركهم صنعاء والبحث عن عمل في محافظة أخرىٰ ليبتعدوا قدر الإمكان عن الذكريات المؤلمة التي خلفتها قضية الإرث.

بسبب وجود الكثير من البيوت التجارية فيها، كانت تعز هي الخيار المناسب لعمل منشار للأحجار. استمر عمل محلات المناشير في تعز بشكل جيد لسنوات وحققوا مكاسب ممتازة، لكن حصتها من الكهرباء متدنية للغاية؛ إذ يكلف إدخال التيار الكهربائي لمنشأة تجارية صغيرة أكثر من مليون ريال في تلك الفترة، وقد أصبحت المدينة مكتظة بالمناشير بشكل كبير. محافظة إب هي الأخرىٰ تشكل بيئة جاذبة لمناشير الأحجار؛ فالكثيرون من أبنائها مغتربون في أمريكا ويقومون ببناء

عمارات ضخمة، وفلل راقية في مسقط رأسهم وقراهم التي يقضون فيها إجازتهم حين عودتهم من الغربة. لكن بسبب طبيعة إب الجبلية الوعرة فالأراضي المناسبة لعمل محلات المناشير فيها نادرة جدًا والإيجارات مرتفعة، وهذا ما لا يستطيع محمد تحمل تكلفته.

يعرف محمد موقع محل والده السابق بدقة. توجد إلىٰ جواره خزانات مؤسسة مياه مدينة عدن في منطقة بئر ناصر التابعة إداريًا لمحافظة لحج الغنية بالمياه العذبة. التصقت في ذهنه صورة الخزان العملاق الذي اخترقته قذيفة دبابة في صورة بشعة للعقاب الجماعي الذي مارسته القوات الشمالية بحق سكان مدينة عدن في الحرب الأهلية عام ١٩٩٤م. وقد ظل الخزان علىٰ حاله شاهدًا علىٰ تلك الوحشية، أو ربما تعمد الرئيس علي عبد الله صالح إبقاءه علىٰ حالته لتراه كل عين، واكتفىٰ بإصلاح بقية الخزانات البعيدة عن الأعين، وحتىٰ حين اعتقد محمد أنهم قد قاموا بإصلاحه قبيل استضافة بطولة خليجي عشرين كان مخطئًا.

- عملنا له صفيحة وطليناه بالطلاء، لكن الماء مازال يتسرب منه.

هذا ما قاله لمحمد جارهم جلال الصبيحي، الموظف في قسم الصيانة بمؤسسة المياه.

كان محمد يسعىٰ إلىٰ تحقيق بعض الأهداف الضرورية من إعادة افتتاح محل عدن وفي موقعه السابق نفسه بالتحديد. سُرَّ لوجود أرضيته

فارغة وغير مؤجرة فبادر إلىٰ استئجارها، ليس لجذب الزبائن القدامىٰ فقط، بل لسد الأفواه وإثبات حسن سيرة وسلوك والده في الفترة السابقة.

وحين سفره إلىٰ عدن للمرة الثانية بعد تجهيز المحل في عام ٢٠٠٧ م أدرك محمد أنه يلعب في الوقت بدل الضائع كما يقولون، حين أخبرهم سائق باص النقل الجماعي أنه سيتوقف لمدة ساعتين في منطقة مريس، حتىٰ تنتهي مظاهرة المتقاعدين العسكريين الجنوبيين التي تسببت بقطع الطريق في مدينة الضالع.

رغم الصعوبات الجمة، وقلة الدعم، استطاع محمد أن يجعل ذلك المحل يقف علىٰ قدميه، ويحقق دخلًا جيدًا لأسرته. كان الحاج عبده يكثر من تحذيراته لأولاده بعدم الذهاب بعيدًا عن المحل، وعدم التوغل في مدينة عدن إلا للضرورة، وقد التزم محمد بهذه التعليمات. لقد وجد اختلافًا كبيرًا بين ما رسمته المخيلة الشعبية لمدينة عدن وبين ما لمسه وعاينه في جولاته القليلة إلىٰ المدينة. شاهدها مليئة بالتناقضات، فبالرغم من وجود أناس ودودين يقطنون في أحياء عدن التي تقع خلف الجبال بمحاذاة ساحل خليج عدن، حيث يتطوع أكثر من شخص لإرشادك إن سألتهم عن عنوان ما، حتىٰ النساء هناك يتحدثن معك بشجاعة.

في التواهي تعثر محمد بسائق باص أجرة من الضالع فتح معه تحقيقًا عن سبب مجيئه إلىٰ عدن.

- جئنا إلىٰ هنا لإيصال كمية من الأحجار لزبون يبني عمارة في جبل هيل، وبما أن القلاب سيتجه إلىٰ أبين قررنا نركب باصًا للعودة. هكذا أجاب محمد عن سؤال وجِّه إليه وهو يعرف أنها ليست الإجابة المطلوبة.
- من هو هذا الزبون؟ مهدي مقولة أَم حميد الأحمر؟! تساءل مرة أخرىٰ ذلك السائق.
- مله شتفتح معنا تحقيق. أجاب عبد العالم بنزق علىٰ ذلك الشخص الذي التفت نحوهم بكل جسده قائلًا:
- مالك دخل يا برغلي. أنا أتكلم مع الدحابشة.

خشي محمد من تطور الموقف فناول سائق الباص أجرة ركوبهم وقال بهدوء:

- معك نازل.

عند نزولهم من الباص قرر محمد المشي حتىٰ وصولهم إلىٰ فرزة الباصات التي ستوصلهم إلىٰ منطقة الشيخ عثمان رأسًا؛ فقد أصبحت قريبة.

- أنيك عارهم.. الإنجليز فلتوه وحقنا الزنوات ركزوه.

هكذا علق عبد العالم وهم يشاهدون تمثال الملكة فيكتوريا وهي تجلس بمؤخرتها الملكية الضخمة علىٰ كرسي العرش وترتدي ثوبًا

فضفاضًا مزينًا بالزخارف وتضع علىٰ رأسها تاجًا. كان هذا التمثال من مخلفات الاحتلال البريطاني لعدن وقد ظل منذ ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م مرميًا في أحد مستودعات ميناء عدن، وفي تصرف غريب قامت بلدية عدن في السنوات الأخيرة بإعادته إلىٰ موضعه السابق. ولكن الأمر الأكثر غرابة هو وجود هذا التمثال بالقرب مما يسمىٰ بالنصب التذكاري لنضالات الشعب اليمني! عقد حجري مدبب لا يحوي أية دلالات أو رموز تعبيرية، وبدلًا من النحت في الحجارة كما هي العادة في أقواس النصر أو نصُب الشهداء، ثبتت بالبراغي حروفًا بلاستيكية ليسهل انتزاعها.

تتضح عالمية عدن في الحقبة الاستعمارية من خلال مسميات الوكالات التجارية التي تفتخر بتاريخ تأسيسها في سنوات القرن التاسع عشر. صُبَّت أسماء الشركات بالأسمنت في قوالب مرنة. شاهد محمد الكثير من أسماء تلك الشركات. ولاحظ النقيض الثوري للاستعمار موجودًا بكثرة في منطقة الشيخ عثمان حيث تنتشر الأسماء ذات البعد القومي في واجهات المحلات: بُردىٰ والنيل، الجزائر، بور سعيد، هي السائدة هناك.

- الوضع تغير، والأعمال في عدن قلت، ولولا أن الحجر الأبيني مطلوب إلىٰ المحافظات الأخرىٰ ما بقينا هنا.

هكذا أخبره علي مصلح شريك والده الأخير والناجي الوحيد من كارثة الكساد الذي سبَّبه تفجير المدمرة كول. لم يبالغ في وصفه؛ فقد كان الحجر الأبيني هو النوع الوحيد الذي يقومون بإنتاجه. بما أن جبال منطقة خنفر في محافظة أبين قريبة من البحر فإن أحجارها مقاومة للرطوبة ومقاومة للأملاح والأَرَضة. حقق هذا النوع من الأحجار رواجًا كبيرًا لدىٰ المهندسين المعماريين، والمقاولين في كل أنحاء اليمن.

كان المحل الذي يديره علي مصلح يعتبر بحق سفارة لكل أبناء القرية الذين يفدون إلىٰ عدن. حين افتتح محمد محلهم القديم أصبح هو الآخر شبيهًا بالقنصلية. كان يأتي لزيارة هذين المحلين كل من أتىٰ عدن من أبناء القرية ولأسباب مختلفة.

تذكر محمد هذا وهو يقرأ رسالة في هاتفه القديم، وتذكر أنه نفذ ما طلب منه دون أن يرد عليها: "اذهب إلىٰ السجن واكفل الطرطور وأعطه عشرة آلاف ريال مصاريف وسأردها لك قريبًا.. اتصل علىٰ هذا الرقم وهم سيقولون لك أين هو". لعنة الله عليه، قال محمد لنفسه وأضاف: لا تزال عنده إلىٰ الآن.

في الساعة الحادية عشرة ظهرًا من أحد أيام بطولة خليجي عشرين وقفت سيارة جيب حبة تويوتا يغطي سقفها قماش من البلاستيك المعروف بالشراع أمام مدخل المحل. ذهب محمد للسلام علىٰ الفندم

عماد الذي يقود سيارته بنفسه وأتىٰ مسرعًا بها في الاتجاه المعاكس لخط السيارات الرابط بين عدن ولحج حتىٰ يكون مواجهًا لمدخل المحل الذي يقع علىٰ يمين الذاهب إلىٰ لحج، ودون أن يخرج كفه من نافذة السيارة عرف محمد أنه قد رفع يده بقصد المصافحة فمد محمد يده إلىٰ داخل السيارة وبالكاد التقت الأصابع.

رجل في الخمسينات من عمره ضخم البنية، له وجه أبيض عريض وعينان محمرتان، حليق شعر الوجه، وخداه مترهلان من كثرة حشو القات، وله شارب عريض شديد السواد.

- نبيل عندكم؟ صيِّح له. وجه سؤاله لمحمد الذي هز رأسه وأجاب:
- "نعم." وأضاف: تفضلوا عندنا يا فندم.
- أين أبوك؟
- في البلاد.
- سلم عليه.. ونادِ نبيل. أضاف الفندم الذي يبدو في عجلة من أمره.

التفت محمد لينادي العسكري نبيل الذي يعمل مرافقًا للفندم عماد فرآه قادمًا مسرعًا نحو السيارة. كان قد أتىٰ لتناول القات وبات ليلته الماضية عندهم.

ركب نبيل من الباب الخلفي للسيارة وظل ممسكًا به وهو مفتوح وإلىٰ جواره بقية الجنود الذين يرافقون الفندم الذي انطلق بسيارته مسرعًا وعاكسًا خط السير حتىٰ يصل إلىٰ فتحة تعيده إلىٰ خط سيره المناسب.

- من هذا الذي وقف أمام المحل؟ سأل العم محمد الجرادي الذي خرج من المنشار للتو ولا يزال بثياب العمل.
- الفندم عماد.
- أنا أختنه. قال الجرادي ومضىٰ يغتسل.

بصعوبة بالغة وبجهود دبلوماسية كبيرة، وربما تنازلات استطاع الرئيس علي عبد الله صالح إقناع الخليجيين بالمجيء إلىٰ تلك البطولة في عام ٢٠١٠ م. هذا ما قرأه محمد في عدد من المواقع الإخبارية وسمعه من نشرات الأخبار. كانت قناة عدن لايف التابعة للنائب السابق للرئيس صالح وشريكه في تحقيق الوحدة بين شطري اليمن تتوعد بإفشال تلك البطولة، وكانت التيارات الجنوبية تحرض علىٰ رفع علم جمهورية اليمن الديمقراطية في مدرجات الملاعب للفت نظر العالم إلىٰ قضيتهم. كانت أعمال تطوير المنشآت الرياضية، والفندقية، تجري ليل نهار، مع خطط مستعجلة لتحسين شوارع المدن ورصفها وتشجيرها وإنارتها،

وبالكاد تم إنجاز الحد الأدنىٰ مما هو ضروري فقد دخلت المنتخبات المشاركة الفندق والطلاء لم يجف بعد، كما علق بذلك رئيس البعثة الكويتية التي كانت دولته الأكثر تحفظًا علىٰ إقامة البطولة في عدن.

من مختلف وحدات الجيش والأمن، أرسل الرئيس صالح عشرات الآلآف من الجنود والضباط لحفظ الأمن وقمع المتظاهرين الجنوبيين إن وجدوا. عرف محمد أن ذلك إجراء احتياطي لا غير؛ فما من داعٍ لكل أولئك الجنود من الأساس، فقد تكفلت وساطة عمانية بإسكات تيار علي سالم البيض، وتكفلت وساطة إماراتية بإسكات تيار الضالع ويافع. وهذان التياران يطالبان بانفصال الجنوب عن الشمال، في حين تكفلت وساطة سعودية بإسكات تيارات انفصالية أخرىٰ أهمها التيار المطالب بانفصال حضرموت عن الجنوب.

كانت أحزاب اللقاء المشترك المعارضة للرئيس صالح ترمي الجنوبيين بأقذع الألفاظ كونهم مرتهنين للخارج، علىٰ حد تعبير مواقعها الإلكترونية الكثيرة، ولكن الرئيس صالح كان يسحق الجميع بظهوره ضاحكًا في حفل الافتتاح، كمن يقول لقد نجحت.

- أحضرهم الرئيس علي عبد الله صالح لكي يعربونا. هكذا عبر العم محمد الجرادي بعد هزيمة المنتخب اليمني بأربعة أهداف نظيفة من قبل المنتخب السعودي.

رفض محمد أن يذهب أيٌ من إخوته لمشاهدة المباريات من مدرجات الملاعب، قائلًا إن مشاهدتها من التلفزيون ستكون كافية، وأنها ستكون أفضل حيث سينقل المصورون المباراة من زوايا عدة وسيعيد المخرج اللقطات المهمة، وهذا لن يتوفر لمن هم في المدرجات، فضلًا عن الازدحام الشديد، فقد حج اليمنيون إلىٰ عدن في تلك البطولة من كل الأصقاع فيما يشبه الوداع الأخير لمدينة عدن.

خيبة أمل مُني بها الجميع بعد الهزيمة المدوية أمام السعودية في المباراة التي جرت في بداية المساء. وفي الساعة التاسعة كانت أعين الجميع مفتوحة علىٰ آخرها أمام شاشة التلفزيون، وعادل إمام يحمل داليا البحيري ويغادر بها مبتعدًا عن مظاهرة الشباب المصري المناهض للتطبيع في فيلم "السفارة في العمارة". قام معظم المتواجدين في الغرفة بلعن القناة التي تبث الفيلم، بسبب قيامها بقطع متعة مشاهدتهم بفاصل إعلاني، رغم أن القناة وعدتهم بأنهم لن يستطيعوا إغماض أعينهم. في الفاصل بثت القناة إعلانات فيها فتيات جميلات. فقام أحمد الممسك بجهاز التحكم بتغيير القناة، وفي قناة أخرىٰ ظهر إعلان بدون فتيات لكنه شد الجميع إليه. كان ذلك الإعلان يعدهم بإطالة أعضائهم الذكرية، بشكل خيالي، وفي زمن قياسي، إن هم استخدموا تلك الأدوات وابتلعوا تلك العقاقير. عقاقير يمكن إيصالها إلىٰ المنازل. كان يقدم الإعلان

رجال يرتدون بوكسرات قصيرة جدا، بالكاد تخفي أعضائهم الذكرية المزعومة. كانت مدة الإعلان طويلة تحدث فيها أولئك الرجال عن تجاربهم، وعبروا فيها عن سعادتهم بعد تلك التجربة، لم يُظهر أولئك الرجال أعضاءهم الذكرية ليتأكد المشاهدون من صدق أقوالهم، بل كانت تظهر صور تعبيرية: مسدس أمريكي له ماسورة طويلة أكثر من المعتاد، كوز ذرة كبير زُرع في الأرجنتين، ثمرة موز ضخمة إنتاج الجزر الاستوائية.

- لا تخسر نفسك.. إنهم كاذبون..

قال العم محمد الجرادي حين رأىٰ الجمراني يرفع هاتفه خلسة ليدون الرقم الذي ظهر إلىٰ جوار علم اليمن في نهاية الإعلان. استخدم العم محمد الجرادي أسلوب الإعلان نفسه ليقنع الجمراني حين أضاف: الموز اليمني صغير ولكنه لذيذ.

بعد خروج اليمن مبكرًا من البطولة تحوَّل جميع من في المحل إلىٰ تشجيع المنتخب العراقي، ولم يهتم أحد منهم بالمباراة النهائية التي فازت بها الكويت علىٰ حساب السعودية.

لم يأت العسكري نبيل إلىٰ المحل إلا بعد انتهاء البطولة؛ فقد تركه الفندم عماد في السجن، وطلب من محمد أن يذهب يعامل عليه ويخرجه بكفالة المحل.

- لماذا نذهب نحن لإخراجه من السجن؟ لماذا لم يخرجه الفندم عماد بوساطاته؟! قال أحمد حين سمع الخبر من محمد.

- ربما نبيل عمل حاجة، وإذا طالب الفندم عماد بإخراجه فإن هذا سيؤثر علىٰ موقعه. رد محمد.

لكن العم محمد الجرادي كان له موقف آخر:

- عماد شخص منحط ولص، وهذه طبيعته طول عمره، ويمكن يكون هو من ورط نبيل.

لم يكن محمد يعرف الكثير عن جهاز الأمن القومي إلا في تلك المرة التي ذهب فيها لإخراج نبيل من معتقله.

- لو سمحت يا أخي هل يوجد عندكم شخص محبوس اسمه نبيل؟ سأل محمد الشخص الذي أجاب علىٰ اتصاله عبر الرقم الأرضي الذي أعطاه إياه الفندم عماد.

- نبيل الذي أوصلوه عريانًا؟ نعم موجود.

لم يندهش محمد من كلمة عريان، بل من المكان الذي أخبره الشخص بالمجيء إليه في ذلك الاتصال، مقر جهاز الأمن القومي في منطقة المنصورة بعدن. بما أنه عريان، كان ينبغي نقله إلىٰ مقر شرطة الآداب العامة. قال محمد لنفسه. أضاف: إنه طرطور فعلًا، والفندم عماد محق بترك شخص وسخ مثله.

فـيلا حديثـة لا يمكــن أن تكــون ســجنًا! وصــل إليهــا محمــد وتعـرف عليهـا بسـهولة مـن كثـرة السـيارات الحديثـة التـي تقـف أمامهـا في الشـارع وحركـة النـاس الـذين يـدخلون ويخرجـون منهـا مـن خـلال البــاب الصــغير المفتــوح والمجــاور لبــاب كبيــر مخصــص لــدخول السيارات ولكنه مغلق.

يفترض أن يكون مقر الاستخبارات محصنًا، إن لم يكـن سِـرِّيًا. قـال لنفسه وهو يدخل من الباب، وأحـد الجنـود يمـرر يديـه فـوق ملابسـه مـن الأعلىٰ إلىٰ الأسفل بغرض التفتيش. ودون أن يدققوا في تفتيشه دخل إلـىٰ فناء تلك الفيلا ليجد نبيل ينتظره بشغف، لكـن محمـد أظهـر حنقًـا شـديدًا وقال:

- أيش المطلوب نعمل لك؟
- تعال إلىٰ المدير اكفلني.

كان وضع نبيل غريبًا فقد كان يمزح معه كل الضباط والجنود الذين يقـابلهم وهـو في طريقـه إلـىٰ مكتـب المـدير مـع محمـد، حتـىٰ أنهـم كـانوا يبدون أسفهم أنه سيغادر ويتركهم ولـم يفهـم محمد شيئًا.

عنـد وصـولهما إلـىٰ المـدير سـأل بلهجـة عسـكرية شـديدة وبلهجـة منطقة سنحان:

- هو هذا الذي عيكفلك؟ مشيرًا إلىٰ محمد.

هز نبيل رأسه موافقًا.

سأل محمدًا عن اسمه:

- اسمك يا خبير؟
- محمد عبده
- بطاقتك.

أخرج محمد بطاقته الشخصية وناولها الضابط الذي يدير مقر جهاز الأمن القومي في عدن. اكتفىٰ الضابط بنظرة سريعة للبطاقة، ثم ألقاها بخفة إلىٰ شخص يقوم بالكتابة باستمرار قائلًا:

- سجل بياناته. ثم التفت إلي محمد ونبيل قائلًا:
- الله معكم.

كان محمد قد أعد كمية من الشتائم ليصبها علىٰ رأس نبيل فور خروجهما من السجن، ولكنه تراجع بعدما شاهد طريقة تعامل السجانين معه. طلب من نبيل التوضيح فقال مستخفًا بالموضوع:

- مابش حاجة.
- لماذا أحضروك عريانًا؟ قال محمد ونكهة الاحتقار تتخلل كلامه.

صرخ نبيل خشية انهيار ثقة محمد فيه:

- لا تصدق أنا فدالك. هو الفندم عماد الذي قال لي.

- ماذا قال لك الفندم عماد؟ سأله محمد أثناء المقيل وقد عادا إلىٰ المحل وأضاف: أنت قلت ستخبرني بكل شيء في المحل.

تحدث نبيل قائلًا:

- كنت فوق السيارة. قال الفندم عماد إنه سيذهب لاجتماع مع بعض الضباط داخل الملعب قبل بداية إحدىٰ المباريات. أخذ معه اثنين من المرافقين وتركني أنا ومرافق آخر عند السيارة. لم أكن في مهمة ولم أكن أرتدي الميري. اكتفيت بالمعوز والفنيلة العلاقي. نزلت من السيارة محاولًا النوم تحت شجرة علىٰ الرصيف وبالفعل غفوت قليلًا؛ فقد كنت ساهرًا في الليلة الماضية. استيقظت مذعورًا حين شعرت بشخص يجرني من قدمي، وحين فتحت عيني رأيت امرأة تتعثر أمامي ونفسها يكاد ينقطع، سألتها ما الأمر ومن أنتِ فتشبثت بي وطلبت مني أن أساعدها. لم تعرف أني عسكري؛ فلم أكن أحمل سلاحي، تركته عند زميلي حين عرفت أنني سأنام. ناولتها قنينة المياه وأخبرتها أنه يجب عليها أن تشرب لكي أفهم ما تقول. وبالفعل شربت الكثير من الماء وقبل انتهائها من شرب الماء ظهر مجموعة من الجنود يحملون الهراوات فصرخت المرأة في

وجوههم: عدن للعدنيين.. برع يا استعمار.. برع يا قرود. لم أفهم شيئًا مما قالته ولم يتح لي الجنود الفرصة لإخبارهم من أكون فانهالوا علينا بالضرب، وقاموا بتكميم أفواهنا وربط أيدينا وتغمية أعيننا، واقتادونا إلىٰ سيارة حملتنا إلىٰ مقر الأمن القومي. أثناء ذلك انسل المعوز من خصري، جراء الشد والجذب الذي حصل، لكنني بقيت بالملابس الداخلية، ولم أصل عاريًا تمامًا كما دُوِّن في المحضر.

أخبرهم نبيل أن إدارة الأمن القومي اعتذرت منه ولكنهم طلبوا منه الاعتراف بأنهم قاموا بالقبض عليه مع الناشطة العدنية التي وصفها المحضر بالساقطة وهم يمارسون الفاحشة.

- وكيف تقبل مثل هذا؟ أليس عيبًا! قال محمد.
- والله أنا رفضت، وقلت مثلك هذا عيب، لكنهم اتصلوا بالفندم عماد وأعطوني التلفون أكلمه، فقال لي: اعمل ما يقولوه لك ولا تقلق.

لم يلتفت أحد إلىٰ حركة أبناء عدن من الوسطاء الخليجيين الذين ضغطوا علىٰ التيارات الانفصالية بالكف عن المظاهرات أثناء دورة خليجي عشرين. كان نشاطها محدودًا وضعيفًا، ومعظم ناشطيها رجال مسنون ونساء في منتصف العمر. كانوا يقومون برفع لافتات كتبت بخط

اليد ويقفون بها صامتين في الطرقات. كانت تلك اللافتات تطالب بانفصال عدن عن الشمال. كانوا يعتقدون أن الأمن لن يقمعهم كونهم سلميين للغاية ولا يوجد بينهم شباب. كان تكتيكًا ساذجًا جوبه بخسة وبطش شديد من قبل الأمن القومي.

- أين ساروا بها؟ سأل أحمد عن رفيقة نبيل العدنية حسب وصفه.
- لا أدري.. بعدما عرفوا من أنا أعطوني معوزًا وشميزًا، أما هي فلا أعرف إلىٰ أين اقتادوها.
- كيف هي؟ هل هي حالية؟ سأله الجمراني ببحة صوت شديدة.

لكن إجابة نبيل صدمته حين قال:

- مثلك تمامًا.. واستدرك: من حيث البدانة وإلا فهي سمراء.
- أنت والأمن القومي والفندم عماد كلكم مخانيث يا نبيل.. قال العم محمد الجرادي.

استمروا في المقيل والحديث حتىٰ بدأ خدر القات يسري في أجسادهم ومع دخول الساعة السليمانية صمت الجميع، ما عدا نبيل طرح عليهم سؤالًا:

- أين يقع شارع الحُب؟
- في جُحر الحمار الداخلي. بهدوء شديد أجاب عليه العم محمد الجرادي.

١٨

عـاد علـوي مـن السـوق مبتهجًـا ومهلـلًا لانتصـارات الحـوثيين وأعمـالهم التصـحيحية. بفـرح شـديد أخـبر الجميـع بمـا يقومـون بـه مـن مداهمات للأسواق وقيامهم بإزالـة المنكـرات وتحطـيم عـرائس العـرض في محلات بيـع الملابس، وكـذا منع الحلاقـين مـن القيـام بعمـل قصـات الشـعر التـي تجعـل الشـباب شـبيهين بـالأمريكيين. أصـبح علـوي شـديد الملاحظة لرؤوس الآخرين، وطـريقتهم في الحلاقـة، ومنتقـدًا أيـة حلاقـة يعتبرها هو غير مناسبة. لعلوي شـعر مجعـد وكثيـف، لكنـه لا يـذهب إلىٰ صالون الحلاقة إلا لتحديد لحيته وحف شاربيه، وهو مطمئن أن السياسـة الحوثية لن تطال قعشته المهلهلة، الشبيهة بلبدة الأسد.

حين عاد محمد من صالون الحلاقة وجد علوي ينظر إليه متفحصًا، ثم علق:

- أنت تشبه السيد حين تهندم مظهرك يا أخ محمد.
- أي سيد؟
- عبد الملك الحوثي.

تبسم محمد ولم يعلق؛ فهذه ليسـت المـرة الأولىٰ التـي يخـبره فيهـا أحدهم بوجود شبه بينه وبين زعيم جماعـة الحـوثيين. حتىٰ والـدتـه حـين

شاهدته يظهر على شاشة التلفزيون علقت بقولها: يشبه محمد ولدي، وهي دائمًا ما تعلق تعليقات صادقة حول الشخصيات السياسية التي تراها أو تسمع عنها. كانت تستاء من نعت الرئيس علي عبد الله صالح بالرئيس المخلوع، وتشتاط غضبًا حين تسمع مذيعًا يصف الرئيس عبدربه منصور هادي بالرئيس الحالي، وحين شاهدت الحوثي الشاب ربما كسب تعاطفها! أو لعلها تأثرت فأحبته مثلما تحب ولدها!

- لو الحلاقين منتظرين أمثالك للحلاقة عندهم لأقفلوا محلاتهم يا علوي. خاطبه أحمد.
- لا حدا يحلق... رد علوي.

لا يريد محمد أن يكون شبيهًا بأحد، أو نسخة مكررة من أي شخص، أيًا كان هذا الشخص. حين وجد أن الناس تعتمد على التشبيه والتعميم في إصدار أحكامها عليه لجأ إلى زي قبائل قيفة، بدلًا من الزي الصنعاني السائد في مناطق شمال اليمن. أصبح السؤال: هل أنت بيضانيّ؟ أخف وقعًا على نفسه من سؤال هل أنت حوثيّ؟ ولكنه كان يقول لنفسه: لست أنا من قلد الحوثي في ملبسه بل العكس.

يعرف محمد مغزى الزي الذي يرتديه زعيم الحوثيين ودلالاته. قرأ محمد انتقادات ونصائح نشرها الصحفي عابد المهذري، حذر فيها من تقليد زعيم حزب الله اللبناني في ملبسه، حين ظهر الحوثي مرتديًا عباءة

سوداء فضفاضة يضعها فوق ملابسه اليمنية. وطالب الحوثي بارتداء الزي الذي يرتديه أبناء القبائل اليمنية لكي يكون واحدًا منهم، ناصحًا إياه بعدم ارتداء العمامة، أو التوزة، التي تميز الهاشمي عن القبيلي. وقد عمل الحوثي بهذه النصيحة علىٰ ما يبدو، بل أكثر من ذلك. لاحظ محمد أن شكل العسيب الذي يغمد فيه عبدالملك الحوثي جنبيته، يسمىٰ البكيلي، نسبة إلىٰ قبيلة بكيل، ويغطيه الجلد الأبيض المائل إلىٰ الصفرة. لم يتخذ عسيبًا حاشديًا كالذي يرتديه مشايخ آل الأحمر زعماء قبيلة حاشد، ويُغطىٰ بضفائر دقيقة من الخيوط الجلدية التي يتم صبغها باللون الأخضر. وحدهم المتعصبون من القبيلتين اليمنيتين الكبيرتين يركزون علىٰ شكل ولون العسيب الذي يرتدونه، ودائمًا ما يذكِّر الحاج عبده أبناءه أنهم من قبيلة بكيل، حين يسمعون زاملًا حوثيًا يشيد بمآثر هذه القبيلة.

* * *

١٩

- هـل صـحيح أنـك رفضـت طلـب يحيـىٰ قـرواش بالـذهاب إلـىٰ صنعاء لتسوير أرضية البيت؟ هل تريد أن تضيع حقوقنا وإرثنا؟

خاطب أحمد أخاه محمد الذي أجاب بسرعة:

- نعم.
- لماذا يا محمد؟

تساءل صالح، الذي كان قد بادر بفتح قناة تواصل مع عمتيهم عـن طريق يحيىٰ قرواش ابن العمة ظبية، بعد قطيعة طويلة امتدت لأكثر من سبع عشرة سنة لـم يـزر فيهـا الحـاج عبده شقيقتيه حتىٰ في الأعيـاد، ولـم تدخل الشقيقتان منزل أخيهما حتىٰ في جمعة رجب. دون أن يطلب منهم والدهم ذلك كـان محمـد وإخوتـه يحـاولون أن يصلـوا عمتـيهم، وفي كـل مرة كانتا توصدان أبوابهما في وجوههم، حتىٰ نجح صالح أخيرًا في ذلـك، بعـد أن اشـترط علـىٰ نفسـه عـدم التـدخل في قضـية الإرث وطلـب عـدم التحدث إليه بشأنها.

- لن يجرؤ أحد علىٰ المساس بأرضية منزل عبد الله الـبردوني. لـن يسيء أحد إلىٰ عبد الله البردوني مثلما فعلنـا نحـن أسـرته. سـوف تضيع إن نحن اقتربنا منها.. يكفي أن لـدينا علبـة الشـمة الخاصـة بعبد الله البردوني، وزجاجة العطر الخاص به.

حدثهم محمد بقصة أخبره بها العزي بوبح الذي يعد من ورثة الورثة؛ حيث إن أمه هي ابنة جدتهم بخيتة أخت عبد الله البردوني. بعد وفاة بخيتة حضر بعض ورثتها للمطالبة بحصتهم من ثروة عبد الله البردوني، وقد استخرجوا أمرًا من المحكمة بتفتيش البيت الذي في صنعاء القديمة، وبما أن مفاتيحه كانت عند الحاج عبده فقد ظنوا أنه يخفي فيه شيئًا عنهم بعد أن رفض أن يعطيهم المفاتيح. وبأمر من المحكمة التي أحضرت مندوبًا عنها قاموا بكسر قفل الباب الحديدي الخارجي الذي يغلق الحوش، وعند وصولهم إلىٰ باب البيت وجدوه بابًا خشبيًا عتيقًا يمكن خلعه بسهولة، لكنهم فوجئوا بمندوب المحكمة يتسمر في مكانه ورعشة كبيرة تدب في جسده، حتىٰ اعتقدوا أن الجن قد سكن البيت وأنه يرىٰ ما لا يرون. سألوه عما يحس به، فقال لهم إنه يشعر بالعار من الاعتداء علىٰ حرمة منزل عبد الله البردوني، وأن قدميه لا تطاوعانه ليتقدم خطوة واحدة للقيام بمثل هذا العمل. حينها شعر العزي بوبح بالخجل فطلب من الجميع الرجوع دون خلع باب البيت.

حدثهم محمد أيضًا عن كيفية حصوله علىٰ علبة الشمة الخاصة بجدهم:

كان البردوني مولعي، يحب الكيف، ومستهلكًا فوق العادة للشمة البيضاء (البردقان). بعد موته كانت توجد منها ملء عبوة سمن في الكوة

التي فوق باب غرفته. كان السائق محمد المحويتي يذهب لشراء الشمة من سوق الملح بكميات كبيرة، حيث كانت تتسع تلك العبوة لخمسة كيلو جرامات من الشمة. علىٰ ما يبدو أنهم قد قاموا بملئها قبل وفاته بفترة قصيرة، فقد وجدها الجمراني ممتلئة، وقضىٰ عليها بسرعة. بقيت علبة صغيرة كان يضعها البردوني في جيبه ويحملها معه أينما ذهب. حين قامت أرملته فتحية الجرافي بتسليم الكتب المخطوطة إلىٰ الكاتب محمد الشاطبي، والجوائز الأدبية والكتب المطبوعة إلىٰ وزارة الثقافة، قامت بنقل ملابس البردوني إلىٰ منزله القديم، وحين ذهب محمد مع والده إلىٰ ذلك المنزل، بعد معرفتهما بما قامت به فتحية، وجد محمد بين الملابس الذي أخذ في تقليبها معطفًا أسود اللون، صناعة روسية فاخرة. سارع إلىٰ ارتدائه، وبطريقة أوتوماتيكية أدخل يده في جيب المعطف كما يفعل من يتمشىٰ في شوارع موسكو. فجأة اصطدمت يده بعلبة معدنية صغيرة اعتقد أنها علبة دواء وحين فتحها وقربها من وجهه أصدر عطسة مدوية لفتت انتباه والده الذي علق: ليس لدينا من هذا الإرث إلا علبة الشمة.

الشيء الأكثر غرابة أن أرملة البردوني نقلت كل ملابس ومتعلقات زوجها الشخصية وكأنها لا تريد أن يبقىٰ شيء يذكرها به. ملابس بسيطة كان يمتلكها عبد الله البردوني، كانت الزنة هي الأكثر حضورًا، ومعاطف، وفنايل داخلية قطنية.. وجد محمد ووالده زجاجتي عطر فاخر، ربما

أهديت إليه من أحد محبيه أو عشاق شعره من الأثرياء. شيء آخر لم يستطع محمد إخراجه من المنزل، فقد وجد زجاجة ويسكي خضراء كبيرة الحجم، ولها عنق طويل، مكتوبًا عليها بحروف إنجليزية كبيرة، ويوجد بها ما يشبه الختم بلون أحمر لافت. اعتقد محمد أن تلك الزجاجة تصلح لأن تكون مزهرية، لكن والده صرخ في وجهه وطلب منه إعادتها إلىٰ القبو الذي أخرجها منه.

- الله يرحمه ويغفر له.. قال الجمراني محدثًا الإخوة عن جدهم:
- أنا والجرادي وجدنا قوارير خمر فارغة كثيرة حين حرسنا البيت الذي في شارع الستين.
- ها.. إذن عرفت سر نكبتنا، هو سبب النكبة، والخلاف الذي حصل بين أبي وعماتي بسبب ذنوبه... نحن انتكبنا يوم مات.
- عيب عليك تتحدث هكذا... فعلًا يوم وفاته يعتبر يوم نكبة علىٰ الأدب والشعر، أما إذا كنت تقصد نكبتنا الاقتصادية فهي بسبب تفكيرنا.

أضاف محمد:

- لا يوجد إرث من الأساس، نحن نعيش بدونه منذ عشرين سنة، كنا سنموت جوعًا لو أنا عولت عليه كما فعل أبي. فتحنا محل عدن واستطعنا فتح هذا المحل فرعًا له،

استرزقوا وجه الله، واشقوا علىٰ أنفسكم، ولا تصدقوا الجمراني.

يعرف محمد أن لا جدوىٰ من أية محاولة للإصلاح بين والده وبقية الورثة. ما يهمه أكثر هو طباعة أعمال شعرية لم تطبع، وقد حاول مرارًا أن يقنعهم بشتىٰ الطرق أن الإرث الثقافي سوف يضيع، ويضيع بعده المردود المادي الذي يمكن أن يحصلوا عليه. وقَّع علىٰ عقود عدة، ووافق علىٰ أكثر من مبادرة لطبع الأعمال وتحويل البيت إلىٰ متحف يضم مقتنيات عبد الله البردوني، وفي كل مرة كانت عمتاه وزوجاهما يُفشلن تلك الاتفاقيات، معتقدين أنه سيخدعهم، لذلك فقد أدار ظهره بعد أن يئس منهم، وظلت تلك العقود حبرًا علىٰ ورق. قابل ذلك تساهلًا من الجهات المعنية، حتىٰ أنه يرفض الذهاب إلىٰ فعاليات ذكرىٰ وفاة عبد الله البردوني، التي تنظمها أحيانًا تلك الجهات، إذا قاموا بدعوته كممثل للأسرة، وحين لا تفعل يقول لنفسه، حسنا فعلوا.

❊ ❊ ❊

٢٠

كان يوم ١٨ سبتمبر ٢٠١٩م مشرقًا ودافئًا، والعمل في المحل جارٍ علىٰ قدم وساق. يعمل الإخوة علىٰ المناشير، ويدير محمد العمل بشكل مرن أكثر من المعتاد. في العاشرة صباحًا شاهد مجموعة من المسلحين يقومون بقياس الأرضية المجاورة للمحل، وحين شرعوا في قياس مدخل المحل اقترب منهم مستفسرًا عما يقومون به.

- اشترينا الأرضية المجاورة للمحل، لكن اتضح أن مدخل محلك أيضًا يقع ضمن أرضيتنا.

يعرف الجميع في منطقة مفرق ماوية الشيخ الدهبلي تاجر المشتقات النفطية، والبَسَّاط علىٰ الأراضي، لكنه أصبح أكثر شهرة بعد الحرب. هو من وجهة نظر الحوثيين رجل وطني، يقف ضد العدوان، ولكن من وجهة نظر الشرعية وأبناء محافظة تعز يعتبر ممن خانوا تعز، وسهلوا دخول الحوثيين، بل ويتعاون معهم ضد أهله، فهو الداعم اللوجستي للحوثيين. اتخذت قيادة محور تعز، الحوثية، من مكتب محطة الدهبلي مقرًا للاجتماعات، كما يقومون بتخزين المشتقات النفطية الخاصة بجبهات القتال في تعز في خزانات محطات الوقود التي

يملكها، وقد يطلب منه مشرف المحافظة بيع كمية منها إذا احتاجت الجبهة إلىٰ السيولة النقدية، كما يشاع عن شراكة بينه وبين القيادات الحوثية في تعز في الاتجار بالمشتقات النفطية في السوق السوداء.

- نحن مستأجرون ولسنا ملاك هذه الأرض...

رد محمد:

- سأتصل بصاحب الأرض لتتكلموا معه.

حين أتىٰ إبراهيم السروري تكلم مع الدهبلي بصوت هادئ ولكنه بدأ واثقًا من نفسه:

- هذه أرضنا وإذا يوجد شيء في نفسك نذهب إلىٰ المحكمة، فإن حكمت لك المحكمة بشيء تأخذه حينها.. أما الآن ليس لك عندنا شيء.

والتفت إلىٰ محمد قائلًا:

- اطمئنوا هؤلاء لصوص. إذا طلعت الأرضية في ملكه فأنا أتحمل المسؤولية كاملة.

بعد مغادرة مالك الأرضية وجد الدهبلي نفسه في موقف حرج فطلب من محمد إخلاء الأرض من الأحجار المعروضة للبيع أمام مدخل المحل.

- لا يمكن أن أقوم بهذا إلا بأمر من محكمة أو قسم شرطة على الأقل... كان مالك الأرض هنا قبل قليل وقد حدثك بما سمعت.
- أنتم تُملِّكونه الأرض بسبب وضع الأحجار فيها وإلا ليست ملكه.
- نحن مستأجرون منهم منذ ست سنوات مضت، والعقود موثقة في المحكمة، ولسنا نحن من نُملِّكه أو نمنعك من امتلاك هذه الأرض... إذا حكمت المحكمة لصالحك سنستأجر منك إن رغبت.

شعر الدهبلي بأنه حُشر في زاوية ضيقة وأصبح في موقف صعب أمام مرافقيه المسلحين فلجأ إلى استخدام القوة. قام بمعية أولئك المرافقين بإزالة صفوف الرخام المعروض وتكسيرها. يعرف محمد عدم جدوى المواجهة مع عصابة مسلحة وكثيرة العدد. اكتفى بقوله: بحجر الله لا تفعلوا هكذا... هذا اعتداء منكم... سوف تندمون.

كان الأخ الأصغر عبد الكريم يعمل مع بقية الإخوة فوق ماكينات المناشير. شاهدهم يحطمون الأحجار فأقبل فجأة مندفعًا؛ غيرةً على حقوقه وهو أعزل من السلاح، إلا من كرامته. صرخ في وجوههم:

- لماذا تكسرون أحجارنا؟ ماذا فعلنا بكم لتفعلوا هكذا؟

وقبل وصوله اعترضه محمد ليمنعه من الاشتباك معهم قائلًا:

- سوف نشتكي بهم.. سوف نبلغ عنهم.....

إلا أن أولئك العتاة لم يمهلوا محمد. أطلق أحدهم وابلًا من الرصاص اخترقت كف محمد الذي كان علىٰ صدر عبد الكريم محاولًا منعه من الاقتراب. عبرت الرصاصات صدر عبد الكريم فسقط قتيلًا، وتكوَّم الأخوان وهما غارقان في بركة من دمائهما.

❊ ❊ ❊